رواية

# البحر وطنا

غالب طيفور الشائب



# بطاقة فهرسة



مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **البحر وطنًا**

المؤلف : غالب طيفور الشائب

**رقم الأيداع ٢٠١٧/١٤٧٩٥**

**الترقيم الدولى / ٢-١١-٠-٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨**

**الطبعة الأولى ٢٠١٧**




القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

# .. إهداء...

بحثت كثيرا لأهدي كتابي لإنسان يستحقه ، يدور فلكه حول ما ترمي إليه محتويات الكتاب ، فلم أجد إنسانا « يستحق سوى هرم السياسة ونبراسه الملتهب من مبدأه حتي منتهاه ، إلى أن أسلم روحه لبارئها ، ودفن ومستحقات علاجه دينا» لم يدفع .

بعدما أحس بوعكة بسيطة نقلناه الي (مستشفي أمدرمان) ونحن حوله ، فوجدنا طبيبات متدربات في قسم العناية فجلست تفحصه إحداهن وقررت له (أنبوبة محلول) فورية عن طريق الوريد وما هي إلا لحظات حتى تم توصيل (الأنبوبة) في جسده ، التي تحوي الجلكوز والملح ، وسرت في جسده الضعيف الذي لم يستطع التحمل نسبة لوجود إنسداد في الرئة فغاص في غيبوبة عميقة

فتقاطر السوائل كان أكثر من اللازم ، فخافت الطبيبة ، وهرعت تتقافز حوله بخوف ، ونحن ننظر لها ووالدنا نائم في غيبوته فصعدت تعتصر صدره تدلك منطقة الصدر بقوة بكلتا يديها محاولة إنعاشه حتي يستفيق فسمعنا صوت تهشم أحد أضلعه صادر من بين يديها ، إنه رجل في نهاية العقد السابع كيف له أن يتحمل ؟ والتففنا حولها ولكن صوت العقل كان أكبر منا ، فمنحتنا (انبوبة اكسجين) لضخ وسحب الهواء من الرئة حتي تنعش القلب عن طريق الاستعمال اليدوي ، وقالت :يجب أن يدخل غرفة الإنعاش حالا» ، ولكن لا يوجد غرفة إنعاش مركزي الا في مستشفي (البقعة) وهي تتبع لمستشفي أمدرمان ولكنها اقتصادية .. لقد كانت تحاول أن تنقذه وهذا هو حدود امكانياتها ، انطلقنا نحن ثلاثة من أبناءه نحو مستشفي (البقعة) التي جزء من مستشفي أمدرمان وقابلنا المسئول ، وشرحنا له الوضع ، قال : لا مشكلة موافق ، فقط عليكم تسديد مبلغ (ستة مليون) لثلاثة أيام في الخزنة قبل إدخاله ، عدنا نحاول أن ندبر المبلغ وكانت الساعة السادسة مساء« ليوم الجمعة ، والجميع يعتذر ، ولابنوك تعمل ولا مصارف مفتوحة والوالد في غيبوبة ويتلقى الأكسجين عن طريق (أنبوبة) تضخ باليد ، أضخ لدقائق ، ويأتي أحد اخوتي ليضخها ، تناوبنا لأربع ساعات ، ونحن في هذه الحالة ، بعدها قررنا نقله الى (مستشفى السلاح الطبي) ، فأحضرنا إسعاف وتم نقله والجميع يتبادل في (أنبوبة الأكسجين) وهو غارق

في غيبوبته التي لم يفيق منها ، ولم نراه مرة أخرى ؛ إذ تـوفى بمستشـفي السلاح الطبي يوم الاثنين (٢٠١٢/ ١/ ١٤)م وارتحل وهو الزاهـد في مكاسب الدنيا،المتعفف عن حقه ،الغني بإيمانـه بدينـه ووطنـه ، وكل أبن بأبيه معجب ، رحل من داره الذي كاد أن يتساقط عليه مـن فرط القدم .

أنه والدي:

(طيفور الشائب محمد حمد) .

الذي طلب منه الزعيم (إسماعيل الأزهـري) الانضـمام لركـب الثورة في بداية الخمسينات ، ويوما ما سألته : كيـف كـان شـعوركم وعلم السودان يرتفع عاليا؟؟

وقال لي : لم أكن أعلم ولا أذكر شيئا في تلك اللحظات فكنا جميعا نبكي كالأطفال .

كرمه الرئيس المصري (جمال عبد الناصر) لرفضه إنـزال طيـران قوات التحالف لضرب جمهورية مصر ، وحينها كـان يعمـل في هيئـة إرشاد الطيـران في منتصف الخمسـينات ، وقـد فتحـت فـيهم عـدة بلاغات بتصرفهم الغير مسئول هو ومعه أكثر مـن ثمانيـة وطنيـين ، لعدم منحهم إذن هبوط للطيران الخاص بالتحالف ، وكان البلاغ من شركة الطيران (سودانير) وتقدم ثلاثة وثلاثين محاميـا للـدفاع عنـه

ومعه الثمانية الآخرين ، وشطب البلاغ .

كانت له جولة مع الزعيم (إسماعيل الأزهري) في ربوع السودان للتوعية ، ومئات الندوات موثقة ، ناضل إبان ثورة (أكتوبر) واستلم قيادة منطقة ( خشم القربة) .

إختلف مع الزعيم (إسماعيل الأزهري) في ترشيح بعض الشخصيات في بعض الدوائر محاولا اجراء محاولة إصلاح داخلي ، فأصدر (إسماعيل الأزهري) مذكرة فصل له ، مطلعها (إلي من يهمه الأمر سلام)

وكتب عنه الاستاذ : (محمد الأمين علي المبروك) هذا المقال :

رحيل طيفور الشايب ... صاحب «لمن يهمه الأمر سلام » ..

بقلم: محمد الأمين على المبروك

نشر بوساطة خلف الظلال في سودانيليوم ١٤ - ٠١ - ٢٠١٣

ممثل الجيل الذهبي في الوطني الإتحادي !

(حملت أخبار الخرطوم ، مما لا يسر القلب ، رحيل المناضل الوطني (طيفور الشايب) أحد ممثلي الجيل الذهبي للحزب الوطني الإتحادي في الستينات :

وبرحيله الصامت تنطوي صفحة جليلة من تاريخ الحركة الوطنية السودانية احد رواد الإصلاح في الحزب وأول من دفع ثمن المحاولة ...خطاب فصل مطلعه لمن يهمه الأمر سلام !

رحل الرجل ..والإتحاديون عيونٌ كليلة ، ونفوس واهنة ، وقيادات الغفلة والغباء النشط تطوف سعياً حول حائط المبكى ...!

في الأنباء أن تشييعه كان خلواً من ممثلي الإتحاديين !

هم في شغلٍ .. يتعاركون أيهم أولى بإعلان وفاة الحزب !

لوح طيفور صاحب « لمن يهمه الأمر سلام » بيده مودعاً

وهو يردد :

« ومراد النفوس أصغر من    أن نتعادى فيه أو نتفانى

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات...

ولا يلاقى الهوانا »

دعونا نبتهل له بالدعاء

« اللهم اغفر له ..فقد كان صادقاً »

سلام عليه ..

سلامُ على «المرضي » بعد «مبارك»

سلام على ذاك الزمان المُضيع ) ..

وصارت هذه العبارة رمزا للمناداة بالإصلاح ، وعادا الى العمل المشترك بعد إنقلاب الرئيس الأسبق (جعفر نميري) فدائما يؤمن الوطنيين بأن البحث عن الديمقراطية هي الهدف الأول ، ولكن ارادة المولي شاءت وفاة الزعيم ، لتتشابه النهايات (أنبوبة اكسجين فارغة) !! .

يجيد اللغة العربية ، واللغة الانجليزية ، والألمانية ، رئيس تحرير جريدة (الوطني الإتحادي) ، ورئيس تحرير جريدة (النداء) ، ورئيس الحزب الوطني الاتحادي في دوراته الرباعية (١٩٨٥م) .

قضي معظم وقته اثناء نظام حكومة (الرئيس البشير) في السجون لم يصالح ، ولم يهادن ، ورفض جميع المناصب ، وكانت آخر محاولاته انقلاب عام (٢٠١٠م) وكانت مشاركة به كل الفصائل الحزبية حتي كتب بيانه بيده ، وأراد الله لهذا الانقلاب أن يفشل بسبب قوات جاء بها (مبارك الفاضل) من غرب السودان وأختلفوا فيما بينهم ، وأطلق أحدهم علي الآخر (ذخيرة) في منطقة طرفية من

العاصمة ، وشاء الله عدم موت المصاب فأسعفوه (بالمستشفي الصيني) وصادف بها وجود ضابط أمن ينتظر إنجاب زوجته لطفل فكشف الأمر بالصدفة ، وتم إعتقالهم جميعا وقضوا قرابة العام في السجون ، حتي تم إطلاق سراحهم بالعفو العام وكان فيهم والدي وأخي (بسطام طيفور) وكثيرين أمثال (مبارك الفاضل) ، و(صلاح الفحل) الذي اعترف بكل شئ ، بعد أن تم القبض عليه يحمل كشوفات واسماء قيادات الانقلاب من ضمنهم (علي محمود حسنين) و( حسن حاج موسي) واللواء (ود العوض) وهو أشجع من عرفه والدي في أيامه الأخيرة علي حسب رأيه ! ، فقد احضره قائد جهاز الأمن للمكاشفة وكان والدي موجودا» ، وطلب منه الاعتراف، فقال له كلمة ما فتئ أبي يرددها حتي وري الثرى:

(يا قوش ، لو نجح هذا الإنقلاب كان أول شئ نفعله هو قطع رؤوس جميع الكيزان في ميدان عام!! ، أما بعد أن فشل فأفعلوا ما بدأ لكم فالموت واحد) ، وكان حديثه وهو مكبل اليدين والقدمين ، شاهدت (ود العوض) وهو في مراسم الدفن ، وانسحب حزينا»، ولم أشاهده مرة أخري .

رحل من أهديه كتابي وهو يقطن في منزل أبيه فقد تبرع بجل ما يملك لتعليم وتثقيف الأجيال القادمة ،إذ كان يصرف على عدد من

طلبة الجامعات المختلفة ، وسعي بكل ما يملك في توحيد (الحزب الاتحـادي) (ومـؤتمر أمبـدة) كـان آخـر مسـاهماته مـع الإخـوة الإتحاديين .

رحل دون أن يعرف عنه الناس شيئا ، لأنـه يـرفض (الأنـا)، ولا يبحث عن الذات فهو غني بعلمه ، وأدبه ، وتواضعه الجم ، الـذي لم أشاهده في هذا الزمن .

أهديك خلاصة تجربتي التي لا تساوي شيئا ، مقابل ما قدمت وأعطيت لبلادك وشعبك ...والدي .

واسأل الله لك الجنة ...

# ..المقدمة...

بيني وبينك والاله

بينك وبينك والضياع سفينة» غاصت تلاعبها الرياح

والمشرعات الباكيات السائلات الله يطلبن السماح

ليس غير الله شئ.. لا طعام لا حياة لا مياه

والظالمون المعتلون علي السفائن يبطشون بكل من نادى وصاح

وهوائل الموج المخيف تلاعب الآمال بالنصر وآخري بالوفاة بلا كفاح

وحياتنا تمضي كأشرطة مسجلة بلا معني ولا شيئا» يسير الي إندياح

ويشق أجنحة ظلام هدير مركبنا الفتية تغوص في بحر السفاح

بلا هوية

بلا قضية

بلا وطن

كل يفر بلا خرائط بلا دليل

كل يساءل نفسه ويضاجع الليل الطويل

ونموت مرة ألف مرة ماعادت الاموات تحظي بالعويل

سيري وشقي سفينتي حزن المخاوف فالحب يحظي بالرحيل

دقي طلاسيم الزمان شقي ليالي المترعات ما عاد في الدنيا طريقا مستحيل

عندما نبدأ بقراءة اي مقال أو رواية ، نبدا بمعرفة المنهج المتبع للراوي او الكاتب ، والمامه بالتفاصيل الدقيقة ، التي توصف لك مدي أحساسه الصادق بما يكتبه ، والموهبة التي يتميز بها ، في توصيل المعلومات البسيطة التي يستمتع بها القارئ ، وانسياقه في الإمساك بتلابيب القصة والرواية ، بين شد وجذب ، حتي تبعدك عن العالم الخارجي ليدخلك داخل إطار الرواية ، وتتعمق فيها حتي النخاع بكل تفاصيلها ، ويبرع الكاتب الماهر في قيادتك ، بهدوء

ورصانة ويبحر بك ، ويستعرض لك موهبته التشكيلية ، والسردية والتوضيحيه ، في سرد واقع معاش أمامك بدقة حية ، وقد يكون مآساوي ، أو مفرح ، أو مضحك ،او اي نوع من أنواع الأدب القصصي .

وفي كثير من الأحوال تبقي رؤيتك الحياتية خالية من المنطق الوجداني في كتابة عن تجربة لم تخضها بنفسك ، وذلك لعدم احساسك الصادق بالتجربة ذاتيا» ، والمعني الواضح هو عدم خوضك للتجربة بنفسك ، والشعور بلحظاتها من حيث تدرجها شعوريا»، ونفحاتها النفسية عن تقلب مساراتها اثناء التقمص لحقائق إنسان آخر .

وكل الحالات بغض النظر عن انها مفرحة او محزنة ، او مآسوية ، او اسلامية .

فتبقي الكتابة عنها مبتورة لعدم وجود الاحساس الحقيقي ، واستسقاء المشاعر لفئة أخري ، التي تكون ترجمتها من معالم وتصاوير وألسنة المجربين الخائضين غمارها ، لذلك حق عليها البتر .

وهذا ما يولد في اعماق الكاتب ، او الراوي الدخول الي عرين التجربة بإحساس الإنتصار الفكري ، والخروج بخلاصة ممتعة ،

تعكس السعادة للقارئ وتشبع الكاتب بسبق الي انتصار وجداني يشعرك بانك خلدت خلفك فكرا» .

وانا أكتب هذه المقدمة وتلك الافكار التي راودت غيري في خوض التجارب المأساوية لتنهش في حياة مرفوضة مجتمعيا مقبولة إنسانيا» ، لايهمك فيها رأي المجتمع ، وحديثنا يندرج في تجربة البحر الابيض الذي اسقط كثيرا« من خيرة شبابنا الأماجد ، الذين ساقتهم التجربة للأهوال والموت المكتوب، تحدوهم آمالا» عراض لمستقبل متغير ، وحياة مليئة بالرفاهية ، وطعم يلفظ عذاب التفرقة والعنصرية ، ومغبة عدم المساواة ، وتبقي الرؤية أمامك هي الحرية الحقيقية في العالم الآخر ، ليسكنوا في بعض الأحيان جراء هذه الرحلة العالم الآخر .

(هذه هي تجربتي الشخصية تشمل معها شباب مختلفي الاجناس والاعراف ، والتقاليد عبروا البحر الابيض ، وذاقوا لحظات الموت علي متن السفن والقوارب ، يأملون ان يعيشوا حياة جديدة ويبحثون عن مستقبل هانيء، ولا يملكون سوي إيمانهم بالله.

أسطرها بحلوها ومرها ، تجربة عشناها بتجرد كامل ، وأسأل الله أن يوفق من عبر ، ويغفر لمن قبر ، داخل البحر ، يحمل طياته طموح عظيم له ، ولأسرته) . . .

(١)

إستيقظت علي صوت صراخ ، والجميع يهرول داخل الشقة ، والإرهاق يقتلنا ، فالنوم في هذه الشقة ، أو بالأحرى (المخزن) كما يسميها سماسرة البشر أمر صعب ؛ قربها للبحر والرطوبة التي تجتاحها ، والبعوض الذي نشعر به يأكلنا أكلا» ، ونحن داخل الشقة الكئيبة التي يسمونها (بالمخزن) ، ولكن كانت الصرخات كفيلة بإيقاظي ، وإيقاظ النائمين جميعا ، من هؤلاء المصريين الذين لا يجيدون شيئا سوي الصراخ بصوتهم الجهوري الذي أصبح سمة من سماتهم .

رفعت رأسي لأشاهد اثنان يقفان في باب الشقة ويقولان : اجهزوا السيارات تحت (يلاا خارجونا ) كانت لحظة الإنطلاق كنا جميعا علي أهبة الإستعداد ، فكلنا يعرف أن دلالات الموعد قد حانت، وأخطرني السمسار قبل يومين بأن أكون علي إستعداد .

لأول مرة شعرت برهبة فكل القصص عن البحر، والمعاناة عن هذه الرحلات تطرق أذني ، وتذكرت شبابنا الذين أختطفتهم يد المنون ، وأسكنتهم قاع البحر الأبيض لتبقي عظة وعبرة لمن لا يتعظ ، ولكن اذا لم يكن من الموت بد فمن العجز ان تموت جبانا.

شعرت بصديقي (أحمد وعمار ) وهم يتقافزان داخل الشقة ويجمعان مقتنياتهما بسرعة ، ويحثاني على التحرك ، كان كل شئ سريعا ، تحركت بسرعة وكنت أعرف جميع ما يلزمني فكل شئ مرتب ، قفزت نحو الحمام ، وانتهيت من غسل وجهي وأسناني وحملت حقيبتي والجميع ينتظرني في باب الشقة ، ولم يتوقف صراخ المصريين ولم ينقطع من كلمة (خارجونا) نزلت ووجدت أكثر من ثلاثين شخصا كما أذكر قد انتشروا في سيارتين (حافلة ) وكان الجميع يرتجف من هذه اللحظة ، ولم أحس الا وأنا داخل السيارة التي تحوي في داخلها أكثر من (١٥) شخصا ، والجو مكهرب والكل ينظر للآخر ليستمد منه الشجاعة .

وتحركت سيارتنا في الأول وتبعتها الأخري ، وظهرت سيارة صالون حمراء يبدو انها تتبعنا ، ومن خلال سؤالي عرفت انها تتبع لزعيم ، مسئول من سماسرة البشر ، ونحن نتحرك لمكان مجهول ، يبدو انه الميناء الذي يبدأون منه الانطلاق النهائي .

أخرجت هاتفي واتصلت بالسمسار الذي اتبع له فكل الذين يسافرون معنا يتبعون لسمسار معين مسئول منهم ، وهو الذي يستلم المبلغ نظير ايصالك لمدينة (ايطاليا) تحدث معي بعجالة واخبرني : أن أكون حذرا« وأن اخبئ تلفوني بعيدا» عن عيون هؤلاء المصريين،

فلو شاهدوه سيسلبونه مني وطلب مني تحذير (احمد وعمار) كما يجب أن يكون معكم مياه للشرب كثيرة فالمشوار طويل ، والتعامل مع هؤلاء التجار يجب أن يكون باللين والذكاء .

كان يلقي لي حديثه كأنه محاضرة ، وانا استمع وأفكر، وعيوني تراقب السيارة التي من خلفنا ، وسيارة الزعيم الصغيرة وهي تتبعنا حتي وصلنا الي منطقة نائية ، وبيوت لم تكتمل ، استغرق المشوار قرابة الساعة ، ولكني أعددت نفسي جيدا»، وخباءت هاتفي بعد أن اتصلت بأسرتي ، وطلبت منهم العفو ، وأحسست بان والدتي واسرتي من اصواتهم أن العبرة تخنقهم وطلبوا مني أن اقرأ سورة (يس ) وختموا كلامهم معي بالشهادتين ، واحسست حقيقة أني اودعهم ، وشعرت ببطني تؤلمني ،والألم يعتصرني ، حتي شعرت بالسيارة تتوقف أمام منزل مهجور ، وهنالك سيارة نصف نقل كبيرة تقف داخل الزقاق الضيق ، وتم منعنا من النزول من السيارة حتي وقفت السيارة الصغيرة الحمراء جوار سيارتنا ، وكانت النص نقل الكبيرة تستعمل في نقل البضائع تقف في الزقاق مغطاة خلفيتها بمشمع بلاستيكي من النوع الذي يستعمل في جوالات السكر ، وبسرعة شديدة رفعوا الغطاء ، وكانت الدهشة تأخذنا فهي تمتلئ حتي نصفها بمهاجرين يجلسون في خلفتيها ، ويقف أربعة من المصريين يحملون خراطيش محذرين بعدم اخراج صوت ،

والصعود بهدوء للسيارة النص نقل الكبيرة فنزلنا متواريين ، وصعدنا سيارة أخري جلوسا ، وكانت جلسة صعبة ، والمصريين تارة يصرخون وتارة يضربون ، ولكنهم كانوا دائما علي حق فهنالك بعض الأشخاص الذين يتناسون أن الموقف خطير والعقوبة في حالة القبض عليهم لا تقل عن عشرة سنوات بسجن (أبوزعبل ). وصعدنا جميعا ، وكنت أجلس في ركن السيارة وصديقي (احمد) في الركن الآخر ، وهو ينظر لي وعيونه تسألني ما الذي يجبرنا علي هذا الأمر؟ ، قام المصريين بتغطيتنا بالمشمع ، حتي شعرنا بضيق في التنفس ، وكانت جواري مباشرة أثيوبية ملتصقة معي ، وكلما تحركت السيارة أجدها داخلي حتي اصبحنا نهتز يمنة ويسرى ، فاجدها تنام علي كتفي، ويضيق تنفسي كنت أريد إبعادها بيدي حتي أحسست بدموعها تتقاطر ، فشعرت حينها أننا جميعا نعاني ، ولا يجبرنا علي المر إلا الأمر منه ، ففتحت فتحة في السقف حتي تتنفس ، والجميع يئن من الإعتصار وضيق التنفس .

قضينا ساعتين والسيارة تنهب الأرض نهبا ثم بدأت تتوقف ، وشعرنا بتوقفها ونزل السائق وطلب منا عدم التحرك ، والجميع صامت لا تسمع دبيب النمل ، حتي فتح الغطاء وطلب منا النزول خمسة أشخاص علي التوالي ، كانت منطقة نائية وهنالك منزل بلا أسوار ورائحة البحر تفوح ، ولكننا لم نراه ونحن نهبط من السيارة

طلب منا أن نجري بأقصى سرعة نحو الغرف في المنزل المهدم ، وكانت جميع البيوت التي بجواره مهجورة ، دخلنا الغرف وتوزعنا علي غرفتين ، وطلبوا عدم الوقوف فهنالك عيون ، وعدم التحدث فهنالك أذان ، وكانت تظهر منارات شاهدتها وانا أعدو نحو الغرف ، انها منارات البحرية المصرية وكانت الغرفة مفروشة بأوراق النعناع وكان صديقاي (احمد وعمار) يجلسان جواري وجميعنا صائمون ، إنه اليوم (السادس والعشرون من شهر رمضان ).

كانت الساعة شارفت علي الرابعة عصرا« فطلبوا منا عدم التحرك حتي لا ننكشف ، ويضيع كل ما قاموا به ، وسيكون التحرك بعد ساعتين ، اذا هم ينتظرون مغيب الشمس ، افترشنا الأرض ، وطلبنا منهم مساحة للصلاة ، فوزعونا لمجموعات ، وكانت الصلاة علي أرض وعرة ، وحقائبنا جوارنا نتحدث بالإشارة ، وقلوبنا تخفق بشدة ، وعيوننا جاحظة ، وأجسادنا ترتجف ، فنحن قاب قوسين او أدني من ركوب البحر .

جلسنا ننتظر ونتسامر بالإشارة ، والوقت يمر بطئ ، حتي بدات الشمس تميل وتدخل في كبد السماء ونحن في قمة الإرهاق كنا ستة سودانيين ، واكثر من عشرة من الجنسيات الأخري في الغرفة المهدمة النوافذ ،التي نسميها في بلادنا (خرابة ) ، وكان المصريون

يتحركون مثل نحل يراقبون ، ويتحدثون حتي أذن أذان المغرب معلنا» إنتهاء يوم (٢٦/ رمضان ) فأحضروا لنا كمية من قوارير المياه ، شربناها بنهم شديد ، وبعض البسكويت الذي نحمله معنا ، والبلح ، كانت الشمس قد غابت ، وبدأ الظلام يستوطن في النواحي، فطلبوا منا الإستعداد .

جميعنا سحبنا حقائبنا بجوارنا ، فطلبوا منا الخروج من الغرف في الباحة الخارجية للمنزل المهجور ، فخرجنا وهم يصرخون: الزموا الهدوء ، الزموا الهدوء ، حتي توسطنا ، ويبدو أن هنالك مجموعة كبيرة غيرنا ، وبدأ المصريون في إحصاء الموجودين سريعا« والتقطت الرقم كنا (٧٢) مهاجر ، أكثرهم من الرجال وعدد بسيط من النساء ، معظمهم من جنسيات مختلفة، في هذه اللحظة خلع جميع المصريين ملابسهم واصبحوا بلبسات السباحة ، وقالوا : لنا تحركوا تحركوا ، وبدأ التحرك ، لم يكن مسموعا سوي صوت الأقدام في الأرض ، وخفقات قلوب المهاجرين فقط ، وكنا نسير في رمال ، وأمامنا تلة ضخمة ، وكانت هنالك عيون تسبقنا وتعود بالأوامر ، لقد شعرت أنا والذين معنا بأنه عمل منظم ، وشكلية توزيع الأدوار لتجار البشر تنم عن خبرة كبيرة ، وكل يعرف دوره ، عموما وصلنا تلة كانت رائحة البحر في ازدياد ، وشعرت بأقدامي تثقل ربما من الخوف أو من الرمال ، وجسمي يرتجف فقد شارفنا النهايات ،

وأرى من حولي مجرد أشباح تتقافز في هذا الظلام ، ولا أتبين اصدقائي الا من خلال ملامحهم المظلمة ، وكنا قد اعتدنا علي أوامرهم ، وقالوا لنا : سيكون القادم صعبا ، كانت كلماتهم كفيلة بإدخال الرعب ، وأشكالهم توحي بالموت ، وأوامرهم عليكم العدو سريعا بعد هذه التلة ، فالمنارات التي علي يمينكم ويساركم تتبع للبحرية المصرية ، تحدثت (لأحمد) و(عمار ) وطلبت منهم أن يكونا جواري ، وبعض الذين كانوا معنا في الشقة ، كان الظلام دامسا»، وانطلقنا والمصريين حولنا حتي صعدنا التلة ، وكانوا يصرخون (أجروا بهدوء) ، وعندما هبطنا تلة شاهدنا البحر، نصف كيلو بالتقريب والشاطئ مكشوف ، ولكن لا مناص سوي العدو ، ونحن نحمل حقائبنا المثقلة بالمياه والطعام ، والملابس ، والإرهاق قد أخذ منا ما أخذ ، وشعرت بصدري يتمزق وأنا أعدو ولكن مصير الذي يقبض عليه السجن في مصر والترحيل ، وهذا ما يعطيني ويعطي من حولي دافع للاستماتة للوصول الي الشاطئ ، وفي هذه اللحظة شعرت بصخرة تمزق أصابعي ، هذه الصخور التي ترقد علي اطراف الشواطئ الحادة ، فسقطت والمصريين يصرخون : تحرك تحرك والاضاءة من أحدى المنارات تضئ نصف دائرة ، والضوء يتحرك نحوي ، فتحملت الألم ونهضت أعدو حتي ساعدني بعض من كان حولي ، وانطلقنا حتي وصلنا الشاطئ ، فظهر لنا زورقان ونحن

أكثر من سبعين شخصا» ، والزورقان سعتهما لا تزيد عن عشرين شخصا ولكن لا مناص فتصارعنا نتزاحم فلا مهرب ولا خلاص!!

كان (أحمد) أمامي قد سبقني الي البحر ، وأنا خلفه مباشرة ، ولكن هذا العاتي الرهيب لم يمهله كثيرا ، فجاءت موجة ضخمة لتسقطه هو وحقيبته ، وامسك بيدي ، وصعدنا سويا للزورق ، والمصريين حولنا حتي صدمني بيده ، وكدت أن أسقط فتمسكت بجانب الزورق ، والجميع يحاول الصعود والأمواج تتلاعب بالجميع ، زورقا» ومهاجرين ، حتي صعدنا أكثر من ثلاثين ، وتحرك الزورق بسرعة رهيبة ، ونحن نشاهد الزورق الثاني ، والمهاجرين يحاولون الركوب اليه فيتساقطون ايضا ، ولكننا انطلقنا وأنفاسنا قد وصلت عنان السماء ، والجميع واجم مرعوب فمرحلة الخطر لم تكتمل ، والمنارات التي تتبع للبحرية تضئ وجوهنا بانوارها ، حتي بدات الأنوار تختفي ، فاوقف السائق ومعه مساعده ، موتور الزورق، وطلبوا من الجميع تسليمهم النقود المصرية ، والا سيرمونا في البحر ، ومن يسقط في البحر فهو مسئوليته ، بدأ الجميع يسلمونهم العملة المصرية الموجودة لديهم فقد فقدت أهميتها اذا قدر لنا النجاة فلا حوجة لها اذا وصلنا لايطاليا ، والزورق تتلاعب به الأمواج ، اقترب مني مساعد السواق وأعتذر لي بانه لم يقصد أن يدفعني ، ولكن مسئوليتهم كبيرة ، وضحكت في نفسي من مسئوليته ، وانطلق

الزورق من جديد يشق البحر المظلم والأمواج العاتية ، وكلنا صامتون ، حتي ظهرت اضواء خافتة ، وعرفنا أنها مركب ، حتي دنا منها الزورق كانت مركب صغيرة او مركب صيد كما نعرفها ، وكانت مغامرة غريبة التفاصيل فقد وقف أحدهم بجوارها ، وطلب من الجميع القفز من الزورق للمركب ، وتحتاج للاعبي (أكروبات) وليس مهاجرين ، ورموا له الحبل من المركب حتي يقلص المسافة، وبين كل حركة وحركة تفتح فجوة ويظهر البحر ، والظلام لا يجعلك تري جيدا» ، ولسوء حظي او حسن حظي كنت انا أول القائمة ، ويبدو أن حب الحياة جعلني (طرزان) في ذاك الوقت فقد وجدت نفسي في نصف المركب ، و(عمار وأحمد) لا يقلان مني في المرونة فقفزا ، ووقفهما الله ، ولكن الأمر المؤسف ان الحقيبة التي فيها المياه والبسكويت سقطت في الماء ، ووجدنا أنفسنا نرتمي داخل المركب جميعا ، وسحبوا بقية الشنط امام المركب ، والمركب متوقفة حتي حضر الزورق الآخر ، ولم يتاخر كثيرا فقد حضر وقفزوا جميعا الحمدلله.

وبدأت المركب تتحرك وكانت سريعة ، رغم أنهامتهالكة قديمة، وانتابنا الخوف ان تكون هذه المركب المقصودة لإيصالنا لايطاليا ، فسألنا العاملين ولم يردوا علينا .

وبدات المشاكل تأخذ طريقها الينا ، فقد أصيب عمار بدوار البحر ، وبدا يتقيأ بصورة مفزعة ، كما أن هنالك أحد العاملين يدور حول حقائبنا محاولا« سرقة مقتنياتنا ، ونحن بين مساعدة عمار والتحدث ، مع ذاك المصري السارق ، وهو يحاول أن يرعبنا ، حتي أرهبناه فابتعد ولكنه أخذ شيئا لم نعرفه .

أنقضت فترة من الزمن ، وهذه المركب المتهالكة تشق البحر حتي إختفت الاضواء ، والدخان يكسوها

من كل الجنبات ، ونشعر بالمياه تصعد الينا داخلها ، حتي بدات خيوط الصباح تنسج الضياء ، فظهرت سفينة أكبر ، وشكلها يعد مناسبا ، وهم يتحدثون يتواصلون معها بهاتف الثريا وخطوط الطول والعرض ، حتي اقتربنا منها ، وظهرت لنابها عددا من المهاجرين ، حتي التصقنا بها ، وطلبوا منا القفز من جديد ، وكانت حركتها وهي تتموج تظهر فجوة ضخمة ، ولكن خوفنا من الموت أضخم ، فتقافزنا بين السقوط والوقوف ، والجميع يساعدنا ، ورموا لنا الحقائب وكل يلتقط حقيبته ، كان (عمار ) مرهقا ساعدناه حتي قفز واجلسناه بقربنا. وكانت السفينة ممتلئة عن آخرها بالمهاجرين من كافة دول افريقيا ، راجعنا مقتنياتنا بسرعة ، وفقدنا (جوال) عمار فقد سرق ، وفقدنا الماء والطعام ، وتحركت السفينة التي كانت تحتشد

بالجنسيات الأفريقية أكثرها ، وتشكل مزيجا من اللغات .

وكأن الصباح قد لاح فجأة»، حينها توقفت السفينة ، وظهرت مركب أخري حضرت لتكملة هذا الحشد ، الذي يصعب أن تجد مكانا للوقوف ، دعك من التمدد ، وتوقفت بنفس الطريق وبدئوا يصعدون السفينة وكان معظمهم من النساء الأثيوبيات والأطفال ، حتي رموا الينا طفلا صغيرا« لم يتعدي عمره شهران ، والتقطناه وصعدت أمه ، كان منظرا» يشيب له الرأس ، وبعد صعود كل من في المركب التي أتت .

تحركت السفينة كان طاقمها الذي يحرسنا أولاد صغار من المصريين ، لا تتجاوز أعمارهم (السابعة عشر ) سنة ، والسفينة من طابقين طولها لا يتعدي العشرين مترا» ، وهي ممتلئة عن آخرها ، تحركت بهدوء وبدأ الكل يبحث عله يجد مكانا« ليجلس فيه ، فالعدد الذي قدرته لا يقل (٥٠٠) شخص ، معظم النساء في السطح، ولا يوجد سوي حمام واحد بلا ماء ، ورحلة تقدر بسبعة أيام ، أو أكثر، فجلسنا بهدوء ، ونحن واجمون جميعا» .

لا يسمع صوت سوى صوت صراخ الأطفال ، وهدير الموتور...

(٢)

لقد بدأت الرحلة ، وضجيج محرك السفينة بدأ صوته يرتفع ، ولكننا لم نكن نتوقع أن تكون السفينة بهذا الحجم الصغير ، وما تحمله من الأرواح ، كنت متعجبا»،ما أبخس قيمة الإنسان عند هؤلاء التجار !! ، وهذا العدد الضخم من الأطفال والشباب والكبار والنساء الذي تكتظ به السفينة، وتنقله داخلها يعد شيئا« مستحيلا» خاصة الحمام ، وعندما تنتقل مجموعة من مكان لآخر نشعر بالسفينة تميل ، حتي يصرخ الجميع ، ويقف في جنباتها ثلاثة حراس من الأطفال يوجهون المهاجرين ، ويصرخون بهم آمرينهم بالجلوس ، وعدم التحرك ، كيف يستهتر تجار البشر بأرواح هذا الكم الهائل من المهاجرين؟! ويوولون مسئوليتهم لأطفال لم يتجاوزوا من العمر (السادسة عشر) ومعهم أحد (الفتوات) وهو يقبع في السلم الصغير الذي يصعد بك لكبينة القيادة الصغيرة القابعة في واجهة السفينة ، ويبدوأنه (فتوة) ، من ملامح وجهه .

والمهاجرون يطوقون السفينة من كل الجنبات ، وهي تتأرجح منذ انطلاقتها في عمق المحيط ، والجميع يحاول أن يجد له مكانا«

ليجلس فيه ، والشمس ترمي بأشعتها الحارقة ، والموج يتنفس رطوبة» ، وهدير الأمواج يتلاعب بالسفينة يمنة ويسرى .

ويدأت حالة من (التقيوء) تضرب المهاجرين ، بسبب دوار البحر ؛ لينضموا لصديقنا (عمار) ، الذي إخترنا له مكان قصي في الجانب الأخير من السفينة ليتقيأ بعيدا ، ولا يصيب رشاشه المهاجرين .

كانت أرضية السفينة من الخشب المتهدل تملؤها الرطوبة ، ونحن أما جلوسا عليها وأما وقوفا« علي سياج السفينة ، ويصلنا رشاش المصابين بدوار البحر ، والموتور يصرخ ويئن ، ويشق الأمواج العاتية ، وما يبعث في قلوبنا الطمأنينة أن السفينة رغم قدمها إلا أنها قوية .

أجبرنا علي الإفطار ، ونحن في العشرة الأواخر من شهر رمضان ، فلا توجد تواقيت توضح الزمن ولايوجد طعام ، ولا ماء ، والوحيد الذي رفض الإفطار كان شاب من جزر القمر يتلو القرآن ، ويناصح الناس بالدعوات .

وجدت فرصة للجلوس أنا وصديقي (أحمد) نجتر الماضي منذ أن فكرنا في هذه الرحلة المشؤمة ، وكيف أننا حصلنا علي مبلغ (٢٠٠٠) دولار نظير أن نصل لإيطاليا ، واستودعنا المبلغ عند أحد التجار شريطة وصولنا ايطاليا ومن ثم اخطاره تلفونيا» بأننا وصلنا ، ونعطيه الكود المتفق عليه حتي لا تكون هنالك فرصة للإحتيال ، وكانت كلمة السر

(الكراتين في الشقة) وهذا يعني أننا وصلنا ايطاليا بأمان ، ولكن ما نراه الآن ، يوحي بان (الكراتين) ستغرق في البحر!!.

سرحت بخيالي أتذكر منذ دخولي القاهرة هاربا»، مشردا من النظام الديكتاتوري السوداني كبقية الهاربين ، والفارين الباحثين عن الأمن والأمان . وعندما وصلت للقاهرة بعد معاناة تقدمت بطلبي (للمفوضية السامية لرعاية اللاجئين) بمدينة السادس من إكتوبر بمصر ، والتزمت بمواعيدهم ، وقابلت مسئوليهم وعلي رأسهم مسئول الحماية علي ما أذكر اسمه ( نور ) بعد حادثة تعرضت لها كانت تبين مدى قذارة رجالات الأمن السوداني الذين يستأجرون (البلطجية) المصريين لسفك دماء المعارضين وإرهابهم ، ويمتلك (الأمن السوداني) منزل بمدينة السادس من اكتوبر ، ويعمل به تحت مسمي مخزن تجاري ،إلا أن مهمته في الحقيقة تسجيل جميع السودانيين الذين يقدمون طلبات للمفوضية وتصويرهم ، ولهم اتصال مباشر برئاستهم في السودان ، كما لهم ملفات مكتملة عن القيادات المصرية ، وكل ذلك يتم عبر ميزانية مفتوحة ، ورشاوي ضخمة لكشف المعضلات قبل وقوعها .

قابلت مسئول الحماية بالمفوضية السامية .

(نور) لم تتعدي مقابلتي النصف ساعة وحديثه كان في كلمات وهي: ( أخي ابتعد من الكتابة ، واختبئ في مكان آمن حتي يتم توطينك

لدولة تمنحك الأمن فلا مصر ولا السودان ولا افريقيا بها الحرية التي تبحث عنها) ، نظرت اليه نظرة طويلة وعميقة ، فهم ما أود أن أعرفه ، فأستدرك حديثه : أقل فترة لتوطينك هي ستتان ، وهذا اذا سارت الأمور علي أحسن ما يرام ، وحالفك الحظ ، ونحن مكتب ونفهم ما تفعله حكومتكم وهو اسوء مما تتصوره ولكننا لا نستطيع أن نحارب دولة ، لم أدعه يسترسل في حديثه ، وقفت ومددت له يدي مصافحا» ، وايذانا» بأن خياراته تبقي في طور المستحيل بالنسبة لي ، فمكتب شئون اللاجئين في القاهرة ، لايعدو الا أن يكون استثمارا» للحكومة المصرية ، ورئيسهم الأسبق (حسني مبارك) أوضح ذلك عندما تمت مساءلته عن مبالغ حدثت فيها تجاوزات تقدر (بثلاثين مليار دولار) اهدرت وقال لمحاكميه : (إنها أموال اللاجئين ولدي المستندات ونحن من أحضرناها) ، فصمت الجميع ، وأغلق الملف ؛ حتي تجد الحكومات القادمة فرصتها أيضا في نفس الاستثمار .

وكان يكفيني دليلا« على صدق ما ذهبت اليه عشرات الآلاف من اللاجئين السودانيين ، وغيرهم من الجنسيات الأخرى الذين يجوبون شوارع مصر منذ سنوات دون أن يجدوا شيئا .

كانت الساعة تجاوزت الثانية ظهرا ، والجميع يتزمر من الضيق ، في هذه اللحظة نزل (الفتوة) الذي كان يجلس على سلم الكبينة وهو

يحمل (عصاة مدببة) من الخشب ، وبدأ يضـرب الجميـع ويـرهبهم بالسكوت وعدم الحركة ، وجاءوا يحملون قارورة مياه كبيرة نصيب الشخص جرعة ماء ، وكان التوزيع حازم تقبله الناس خـائفين ؛ لقـد أضعنا قوارير المياه التي أتينا بها .

إنقضي اليوم السابق من أيام شهر رمضان ، والجميع ينـام مثـل نوم (الديك في الحبال) والإرهاق جعلنا لا نشعر بالبرد .

وبدأ اليوم الثاني داخل البحر بتفاصـيله الكئيبـة تحـوي مشـاكل كثيرة تظهر في وجوه الحراس ، والجميع يتساءل ويحتاج توضـيح ؟ وكنا نتوقع من الربـان إجابـة لعـدد مـن الأسئلة عـن خـط السير ، وتفاصيل الرحلة ؟ والمدة التي تستغرقها؟ ، ونحن لم نشـاهد حتـي الآن سوي ثلاثة أولاد هم المسئولين من الحراسة!! ، وهنالك ولـد يبلغ من العمر حوالي (١٤) سنة مسئول من (وابور)السفينة !!، ينزل يتفقد الموتور كل فترة ، وهنالك شاب أكبر منه يبلغ من العمر (١٧) سنة اسمه (حسون) وقد توطدت علاقته بي بعد أن عرف أنني كنـت أسكن في مدينة اسكندرية في منطقـة (أبـوقير) وقـال لي: ان القبطـان ومساعده ايضا من تلك المنطقة ، وكل فترة يسألني عن اشياء خاصة بالدولة التي أنوي الاستقرار فيها وأجيبه بحكم معرفتي .

كان الصباح هادئا بعض الشئ ، والسفينة تسير مسـتقرة بعـد مـا

منعـوا جميـع المهـاجرين مـن التنقـل ، واغلـب المهـاجرين مـن الاثيوبيين، وهـم يشـكلون أكثـر مـن (٣٥٠) مهـاجر والأرتـريين ، والصوماليين ومجموعة من جـزر القمـر ، ونحـن السـودانيين كـان عددنا (٦٠) مهاجرا او اكثر قليلا« في هذه اللحظة بدأ توزيـع رشـفة المياه ، والتوزيع يتم بصورة مخيفة إذ نصيب كل مهاجر رشفة ؛ فقد إتضح لنا في هذه اللحظـة إن الميـاه كـادت ان تنفـد بسـبب وقـوف السفينة في البحر، وانتظار اكتمال عـدد المهـاجرين حتـي إكتمـل ، والـذين يركبـون في الفتـرة الأولي يـأكلون ويشـربون حتـي تكتمـل العددية التي يقررها (زعيم تجـار البشـر) وهـو الـذي يصـرف عـلي الرحلة من أولها وحتي نهايتها ، بـل ويشـتري السـفن القديمـة لصـيانتها، وتكون نهاية السفينة تفجيرها في قلب البحر مـن قبـل السـفن المنقـذة اذا كتبت النجاة للمهاجرين حتي لاتعود بمهاجرين مرة ثانية ، ويقـبض عـلي الطاقم ويتعرض للمحاكمة من قبل القضاء الإيطالي ، وتتـراوح الأحكـام من ثمانية سنوات وحتي السجن المؤبد .

في هذه اللحظة ظهر الفتوة (حوتة) كمـا يطلقـون عليـه ، وهـو يحمل معه (عصاته المدببة) ويطلب أربعين شخصا للنزول الثلاجة، والثلاجة هـي غرفـة في منتصـف السـفينة ، وتكـون مكـان لتخـزين السمك ، وهي مظلمة ونتنة الرائحة ، وتكـون دائمـا ضـخمة بطـول السفينة ، ووجود المهاجرين فيها يخفف من الحمولـة .ويـوزن دفـة

القيادة ، اذا كانت السفينة محملة أكثر من طاقتها ، وعندما مررت بجوارها كانت حقيقة مخيفة.، واذا اصطدمت السفينة او انقلبت في القابعين في الثلاجة فنادرا ما يخرج منهم أحد .

كان (حوتة ) حازما« في أوامره مخيفا في تفاصيل وجهه ، والجميع لايعرفون عنها شيئا ، فقام ( احمد وعمار ) ودخلوا الثلاجة، في حقيقة الأمر انا لم أعرف هذه المعلومات الا بعد دخولهم الثلاجة من (حسون) فبعد دخولهم وخروج اشخاص كانت اشكالهم توحي بالإرهاق ووجوهم مصفرة وهم يترنحون لقلة الأكسجين وضيق التنفس ، ويتساقطون لوحدهم ، فاخبرني (حسون) بعواقبها ، فسألت الله ان يخرج اصدقائي بخير ، واكراما للذين يدخلون الثلاجة تقدم لهم كمية من المياه ، وبعض البسكويت ، وجزر القمر شيخها يقرأ في (سورة يسن) ويدعو ويسأل الله التخفيف .

جاء حسون وطلب مني مقابلة الربان بعد أن أخبره انني من اسكندرية ، وتنقلت بصعوبة لأصل كبينة القيادة ، حتي صعدت واندهشت عندما نظرت للربان لقد كان شابا« صغير» لايكاد يتجاوز العشرون سنة» ، والذين من حوله كلهم صغار السن لقد فهمت الأمر الآن !!! تجار البشير يعلمون الأطفال قيادة السفن ، فاذا قدر لهم الله الوصول سالمين ، لا تستطيع ايطاليا محاكمة القصر أو

صغارالسن ، فأعمارهم لم تتجاوز سن المحاكمة ، وتبقي الخطورة هي عدم خبرتهم في قيادة هذه السفن وقلة فترة التدريب ، فلا يمكن ان ترهن أرواح المئات من المهاجرين في أيدي أطفال قصر!! .

رحب بي الربان وسألني: ماذا لوقبضوا علينا الايطاليين وقالوا ان أعمارنا تجاوزت العشرين ، فنحن اجسامنا ضخمة ؟ ، كان ردي مقنعا« قلت له: عندما تصل سفن النجاة سنقنع الجميع بأن طاقم السفينة هرب، فضحك ، وعرفت في هذه اللحظة من لون اسنانهم جميعا ومن ضحكاتهم أنهم مدمني مخدرات ، وهم مشهورين في منطقة (أبوقير) باسكندرية ، وتصرفاتهم كانت غريبة ، خرجت ووجدت السطح الذي يطل علي الكابينة مزدحما بالنساء الأثيوبيات ، والأطفال ، فرجعت مكاني ، وكان (عمار واحمد) قد خرجا من الثلاجة ، جلست واجما» فما شاهدته يوضح أن هذه الرحلة مشؤمة حقا» !!.

كان الليل قد حل ، وظهرت سفينة صغيرة ، قامت بإمداد سفينتنا بكمية كبيرة من الوقود وبعض المياه ، وغادرت ، وبدأ الجميع واجما« إلا من صراخ لبعض النسوة في السطح ، واحسست أني الوحيد الذي أعرف ما يدور ، فهولاء المدمنيين يغتصبون النساء الموجودات في السطوح !!،، ولا يوجد حمام في السطوح فيتساقط علينا رزاز البول من السطح والكل يظن أنها مياه البحر ...

## (٣)

شعاع الصبح ينسج أشعته ، وجميع من في المركب يتململ ، ونقاط المياه التي نتناولها لم تعد تكفي ، ونحن السودانيين نجلس في ركن قصي من المركب ، ونتجاذب أطراف الحديث والكل يسرد تجربته ، كان معنا شاب صغير يدعي (علاء الدين) وله صديق قبض عليه ، وتم إطلاق سراحه من الشرطة المصرية فقد كان يملك بطاقة الحماية الخاصة بالمفوضية ، وكانت معهم امرأة قبض عليها معهم ، وشهد أحداث التحري بينما هو في الزنزانة :

-لم نجد معها شيئا سوي بطاقة المفوضية السامية لرعاية اللاجئين سيدي ، وقد كانت لوحدها ، حتي طريقة كلامها لا نستطيع أن نفهمها من الصراخ والبكاء ، كما أنها عنيفة سيدي وكادت أن تفتك بثلاثة من جنودنا ، والشئ الذي وضح لنا أنها (سودانية) الأصل ، وكلما حاولنا التحدث اليها نجدها بين الدموع والتوسل .

- منذ متي وهي بهذه الحالة؟

- منذ أن تم القبض عليها سيدي ، وهي على متن القارب ، مع آخرين يحاولون الهرب الي قلب البحر أنهم مهاجرين غير شرعيين

تنتظرهم سفينة آخري لتنقلهم لايطاليا .

أومأ الضابط برأسه لفترة وهو يستمع للجندي ، ثم سأله:

- ماذا قال الذين كانوا معها ، قالوا :

- كلاما غريبا سيدي قالوا ان هذه هي المحاولة الثانية فالمحاولة الأولي كانت منذ (٢٠ يوما» وتم القبض عليها وكانت معها طفلتها واثناء هروبهم السابق والهرج والمرج الذي يصحب ركوب القارب ، سقطت منها ابنتها الصغيرة في البحر وكانت تبلغ من العمر (سنة ونصف) علي حسب حديثهم .

ضرب الضابط التربيزة في هذه الأثناء وهو يستمع لحديث جنديه حتي كاد أن يحطمها ، وأطلق زفرة وجع حتي ظهرت عروق عنقه ، وقال : ( لاحول ولاقوة الا بالله ، ماتت طفلتها أمام ناظريها ، ما الذي يجعلها تخاطر بطفلتها الرضيعة في عرض البحر )

قاطعة الجندي سريعا :

- لا سيدي ، لقد كان من ضمن القارب سودانيين ، وهم دائما متكاتفين كما تعلم سيدي ! ، وكان فيهم شاب يجيد السباحة فقذف بنفسه خلف الطفلة وأنقذها فيما يبدو ، وكان هنالك قاربي تهريب ، فصعد بالطفلة الي القارب الثاني ، صاح الضابط وأين هو ؟ وأين الطفلة ؟

رد الجندي:

سيدي لقد فر القارب الذي فيه الطفلة وتم القبض علي القارب الذي فيه الأم ، ولم تستطيع قوارب القوات البحرية اللحاق به ، وهذا الأمر حدث قبل (٢٠) يوم بمعني أن طفلتها حاليا تكون في إيطاليا ، منذ عدة أيام ، ونظرا للحالة التي تمر بها هذه المرأة ، وبطاقة الحماية التي في حوزتها تم إطلاق سراحها بعد تعاطف الشرطة المصرية ، وتدخل مكتب المفوضية في الموضوع ، وكما ذكر سيدي الشاهد ، أن هذه المراة منذ أن اطلقوا سراحها عادت لمدينة (اسكندرية) وجاورت البحر حتي تجد اي مركب تهريب للحاق بإبنتها التي اصبح مصيرها مجهولا» ، وتعاطف معها جميع تجار التهريب في البحر وأدخلوها مخزن مع نساء كثر ، وطيلة الفترة التي كانت في المخزن أكثر من اسبوع لم يشاهدوا هذه المرأة تاكل شيئا« كانت تتقيأ فقط مرا« اصفرا» ، وتستغفر الله ، وتصلي وهذا حالها ، حتي أصبحت شبحا» ، وكانت محاولتها الثانية امس ولسوء حظها ، أو لسوء حظنا ، نحن قبضنا عليها ومعها قرابة الثلاثين لاجئ .

كان الجندي يحكي ودموعه تسيل علي خديه ، والضابط ايضا ، وأنا اشاهد هذا المنظر بكل تفاصيله من خلف باب الزنزانة وأبكي ايضا ، وأسمع صوت تنهدات الأم الموجوعة ، يكاد صوتها يشق قلبي شطرين!! .

لم تستطيع أن تلحق بأبنتها الرضيعة التي اختفت في بحر الدموع ، وكانت تبكي بدموع لم أشاهد غزارة لها الا في أمطار الخريف ببلادي، وصوت الألم ياتي كصوت الأمواج الهادرة . إقتادني العسكري بعد أن تم تحويلي من اسكندرية لمصر ، وخرجت وانا القي اليها بنظرة وهي تختبئ في ركن قصي من الزنزانة ، ودموعي تتدفق وأحساسيسي توقفت عن العمل ، ولم اشعر في تلك اللحظة إلا والعسكري ينتهرني ويقول لي مشيرا اليها :

حاليا سيطلق سراحها فمكتب المفوضية اتصل علي مدير القسم، أعرفكم أيها السودانيين تساندون بعضكم البعض وتحسون بآلام اخوانكم .

خرجت وانا لا أعرف الي اين أذهب ، لم أحس بالقيد في يدي وهم يرحلوني لقسم الشرطة في مصر ، ربما لأني أملك بطاقة حماية من المفوضية ، ولا يملكون إلا ان يتحروا معي لأيام ويطلقوا سراحي في نهاية الأمر .

لا تزال صورة الأم والطفلة تؤرق مضجعي اشاهدهم في كل شئ حولي ، ثلاثة أشهر وكأني فقدت طفلتي .

كنا نستمع له وهو يحكي قصة صديقه حتي شارفت الساعة منتصف النهار، وشيخ جزر القمر يتلو مرة ويدعو مرة ، كان العطش

قد بلغ فينا ما بلغ والجوع ، وكانت هنالك مياه تستعمل للماكينة وهي ضارة لأنها مخلوطة ببعض الزيوت ، وكان هنالك احد العاملين يخرج بعضا منها للمهاجرين فيتصارعوا عليها ، واذكر ان كوب ماء سقط منه فسقط المهاجرين يلعقون الأرض التي نمشي عليها جميعا وهي متسخة .

توغل الليل والبرد يزداد والإرهاق بين الجلوس والتوقف ، وجرعة الماء التي توزع ترطب الحلق فقط ، والمركب تسير متعرجة والصراخ بالليل يزداد ، والاطفال يبكون ، والجميع يهاب الثلاجة ، التي اصبح الدخول اليها إجباريا» .

بدأ هذا اليوم غريبا« في تفاصيله والشحوب يملأ وجوه المهاجرين ، والضجر سحابة قد سدت الأفق أمام أعينهم ، وحصة المياه اصبحت لا تكفي طفل ، وكان بعض المهاجرين يخبئون المياه في حقائبهم ، فقام بعض المهاجرين بتبليغ المصريين ، فاعلنوا حالة تفتيش قصرية علي جميع المهاجرين ، وكان الفتوة (حوتة) ممسكا بعصاه حتي أخذ جميع المياه المخبأة ، ووزعها علي الجميع .

مر النهار كئيبا« ، والجميع يتلوي من الجوع ، خمسة أيام ولم نجلس في الحمام ، والحمد لله أن بطوننا فارغة ، وبدات الوردية التغيير فالسفينة سرعتها ضعفت ، وطلبوا مائة شخص للنزول للثلاجة ، وكان الجميع

يرتجف ، وقد اصبحت أكثر سواءا»، ورائحتها تفوح مقززة ، كان هنالـك ستة سودانيين يجلسون في الثلاجة لم يخرجوا منها منذ انطـلاق البـاخرة ، فطلبوا من السـودانيين جميعـا النـزول للثلاجـة، بعـد ان اقنعـوا (حوتـة ) بإرهابهم ، وادخالهم قسرا»، وكان حوتة يقف شاهرا عصاه ولكنه إختـار الزمن الخطـأ ، والرجـال الخطـأ ، فتصـديت لـه وقلـت لـه: أن النـزول للثلاجة يوزع بالنسبة فعددية الباخرة أكثر من (٥٥٠) مهاجر والسـودانين يشكلون (١٢٪) من كمية المهاجرين فيجـب علينـا انـزال (١٢) مهـاجر وأتضح ان الثلاجة بها (١٥) مهاجر سوداني ، وحدث صراع طويـل بينـي وبين (حوتة) والأثيوبيين الذين كانوا الأكثر عددا ، وانسحبوا مني بعـدأن ادخلوا بعض الاثيوبيين ، وخمسة من جزر القمر وهم يصرخون ، وخـرج بقية من في الثلاجة ، يرتجفون من البـرد ، ونحـاول أن نبتعـد عـنهم مـن رائحتهم النتنة .

كان (حوتة) قد أضمر في نفسه رفضنا للإنصياع لأوامره ، وظهر ذلك من نظرات عيونه لنا .

وكان غروب الشمس قد اكتمل فظهر هـذا (الفتـوة) يحمـل عصـاه ويضرب بها كل من يجده أمامه ، ويبدو أنه قد زاد من جرعة المخـدرات التي يتناولها ، فعيونه تتوهج شررا» ، وأحسست أن المواجهة قد حانـت ، واصطدم بالشاب الصغير (علاءالدين) ورفع الحزام عاليا ليضربه ، وهـو يصرخ كعادته ، ليرهب الجميع ، ولكن حزامه لم يهبط فقد صـدمه هـذا

الشاب الفتي حتي سقط في طرف الباخرة ، ولكنه هب سريعا ، وسحب حديدة ضخمة وهو يصرخ : (يا ابن الزانية ) ، ويتجه نحو (علاء الدين) فوجد السودانيين جميعا يقفون ويردون عليه: ( ابن الزانية أنت )، وسحبنا (علاء الدين ) خلفنا ، فعرف أن هذه المجموعة لاقبل له بها ، وسادت السفينة موجة صمت رهيبة ، وأعلن السودانيين تمردهم ، وعاد كل الي ركنه.

في منتصف الليل حضر (حسون) ونادي علي شيخ جزر القمر وكانت حركته مريبة ، ويتلفت خيفة» ، فأعطيتهم الزمن الكافي وهم يدخلون كابينة القيادة وذهبت خلفهم أتلصص لأعرف ما يدور في الخفاء ، فسمعت بكاء« وكلمتين (لقد مات ) واثنان يتعاركان في بينهم من طاقم السفينة وأحدهم يقول للآخر :

لقد أخبرتك أنه كان يصرخ ويتقلب في أرضية الثلاجة ، ولم تهتم به لقد كان يلفظ الروح فلا يوجد اكسجين في الثلاجة ، والاشخاص المصابون بمرض (الربو) يجب أن تتجنبهم لم تسمع حديثي ومات هذا الرجل بسبب إهمالك ، كان رد الثاني : لقد ظننته يدعي المرض، وبنيانه الجسدي قوي فلم أتخيل أن يموت بهذه السهولة .

وعدت بهدوء وانا أرتجف واخبرت اصدقائي سرا« بان هنالك أحدهم مات داخل الثلاجة ، لقد كانت لحظة مفصلية ، وتغيرت الوجوه وشعرت بأن الروح في هذه السفينة رخيصة ، وكان حديث

افراد الطاقم وكأن الذي فقد قطة أو دجاجة ، وأحسب أن القطة أوالدجاجة سيتألمون لها أكثر !!، ولكنهم يتعاطون كمية كبيرة من المخدرات تجعلهم في غيبوبة .

وعاد بعد برهة الشيخ الذي اصطحبه (حسون) واجما صامتا ، والسفينة تشق طريقها ، وانا انظر اليه خفية بين الحين والحين ، وهو سارح لا يتحدث ولا ينطق علي من يتحدث معه ، وفجأة نهض من مكانه وتحرك ، وشق طريقه بيننا وقفز في البحر بصورة سريعة ومخيفة ، ولم نشعر سوي بجسمه يرتطم في الماء والسفينة تسير بسرعة ، وصرخ جميع من في السفينة : أنه يحاول الإنتحار ، ولكنه كان يرتدي سترة نجاة ، فقفز خلفه اثنان من المصريين ، وحاولوا الإمساك به وهو يحاول أن يهرب منهم ، كانه يبحث عن الهروب من هذه السفينة ، وحاول الجميع مشاهدة المنظر ، فمالت السفينة بجانب ، حتي دخلتها المياه ، وظهر الفتوة (حوتة ) واستعمل عصاه يضرب بها كل من يقف ، حتي عادت تسير ببطء وأوقفوا المحرك ، والشيخ يتوغل بعيدا في المياه ، ولكنهم نجحوا في التطويق به حتي امسكوا به وعادوا به بعد صراع طويل والجميع مذهول ...

## (٤)

بـدأت الهمهمـات صـوتها يعلـو في السفينة ، وأحس المهاجرين بموت أحد الركـاب وتغيـرت الوجـوه ، وتفشـي الخـوف وأصـبحت الثلاجـة مكانـا« مرعبا» يرفضه الجميـع ، رغـم أن وجـود الركـاب في ظهـر السـفينة يجعلها ضعيفة الحركة وتتأرجح ، ولا يوجد مكان للوقوف في هـذه السفينة فالعددية التي يجب أن تستقبلها هـي (٥٠) شخصـا فقـط ، وهي مخصصة لإصطياد الأسماك .

بدأ البعض يشرب من مياه البحر ويتقيأها فـالعطش اصبح هـو الإشكالية الأكبر ، والعيون الغائرة توحي بفقدان الجسم للسـوائل ، حتي الحديث مع بعضنا البعض أمسي مشكلة والأجسـاد تتهالـك ، ولم أكن أنا افضل مـنهم حـالا» ، فقـد تحـرك (أحمـد) بعـد أن شـعر بضعفي وأحضر لنا (طحنية ) مخباءة في حقيبته ، وأحضر ماء البحـر وخلطها ، والله لم اتذوق طعما أمر مـن مـاء البحـر !! ، ورغـم ذلـك تخاطفوا منـي المـاء المخلـوط بالطحنيـة رغـم مرارتـه ، وانتـابتني اغماءات لثواني بسبب فقدان السـوائل ، وهنالـك بعـض الأثيـوبيين صاروا يدخلون خلسة لسـرقة مـاء (الوابـور) المخلوطـة بالزيـت ،

مستغلين غياب الطفل الذي يحرس (الوابور) الذي إتضحت شراسته ، وطباعه السيئة من خلال مشادة رهيبة بينه وبين المهاجرين ، وكان (حوتة) الفتوة ومعه بعض المساعدين مشغولين بمصارعة بعض المهاجرين وإنزالهم عنوة للثلاجة ، ويرموا بهم داخل الثلاجة بلا شفقة أو رحمة ، فالأمر أصبح اضطراريا» ولا مكان للمجاملات .

وهاهو الغروب يسدل استاره لاحتواء ليلة أخري ، وظلام جديد ، والنساء والأطفال كاد أن يعصف بهم الجوع والعطش حتي سمعنا صراخا« فوق السطح الذي يحتوي الأسر والكابينة و الربان ، وتفاجأنا بأنها محاولة أخري فاشلة لأحدى الأثيوبيات التي حاولت الإنتحار ، وكان منظرا« رهيبا»وهي تتدلي من السقف ويمسك بها. زوجها وأحد افراد طاقم السفينة ، لقد ملت الحياة ، وفضلت الموت الرحيم وهي تكابد بسبب العطش والجوع ، لقد اصبح الأمر لايطاق، وهنالك طاقم السفينة الذي يدور ليلا« ليغتصب كل من تقع عليها عينه ، وهم يحتمون ببعضهم ولا يوجد لهم حارس ، حتي اصبحن طائعات للمغتصبين ، فقد قل الصراخ وربما وصلن الي مرحلة التلذذ بالإغتصاب ، او البحث عنه لإشباع رغباتهن ، وهم يوفرون الغطاء في سطح السفينة ، فتجد الطاقم من الشباب صغار السن الذين هم في مرحلة البلوغ ، فنسمع نداءات النسوة الاثيوبيات

يطلبن جرعة من المياه مقابل اشباع رغبات الطاقم العامل علي السفينة ، حتي بدئوا يتهربون منهن .

والسفينة تسير بلا هدى ، ولا نعرف أين وصلت بنا هذه السفينة المشئومة ، وهؤلاء الاطفال الذين يقودونها قليلي الخبرة وشحيحي التجربة ، وربما إنحرفوا بنا نحو مسار آخر ، وأكثر ما يجعلنا نطمئن أن لديهم جهاز الثريا .

هدأ الضجيج وتصارعنا في الأماكن حتي ظهر جميع طاقم السفينة وهددوا المهاجرين بأنهم سيقلبون السفينة ، وتخوف الركاب من الطاقم بعد وفاة شخص ، ومن يدري ؟؟وربما هنالك أشخاص آخرين لقوا مصرعهم من أصحاب الجنسيات الأخرى ، وأخطرت الجميع ان يتفقدوا بعضهم البعض ،، وكنا اثناء الجلوس والوقوف نشكل تكتلات السودانيين يقفون سويا مع بعضهم ، والاثيوبيين سويا» وهكذا الحال .

لقد أحسسنا بان طاقم السفينة قرروا شيئا داخلهم والسفينة تسير بطريقة سريعة وتتموج في مسارها والمهاجرين يطلقون أصوات الاستهجان والتزمر ، وطاقم السفينة أضمر شيئا وأجزم علي تنفيذه ، ولكن ثورة المهاجرين وإستهجانهم أخاف طاقم المصريين ، وأظن تفكيرهم في النجاة من العقاب ولا يوجد مسئول سوي طاقم السفينة

عن سلامة الركاب ، وموت شخص أو شخصين فيها يعد جريمة قتل ربما تقودهم للإعدام ، كان شكلهم متغيرا وآثار المخدرات تظهر على محياهم ، وحركاتهم ، واستعمالهم للعنف الذي يلجأون اليه .

اجتمعنا نحن السودانيين وقررنا أن نتابع حركتهم ، وطلبوا مني التحدث لربان السفينة بحكم معرفتي به وتحركت لربان السفينة ، وتحدثت معه قائلا» :

اذا اراد الله لنا نجاة يجب أن ينزل الطاقم علي أنهم ركاب ، وقد اتفقنا جميعا ان نقول أن الذين كانوا يقودون السفينة انتشلهم زورق كبير معد لإعادتهم ، وفروا خوفا« من العقاب وتركونا ، كانت الفكرة التي اقترحناها جيدة ، بعثت في نفوسهم الإطمئنان بعض الشئ ؛ وانا عائد منه سألني :

ولكن هؤلاء --يعني المهاجرين ربما يفشوا سرنا ، فقلت له: دع هذا الأمر لنا أنها مهمتنا يا (بلوظة) ، نحن أولاد اسكندرية .

لقد شارفت الرحلة علي النهايات ، ولكنهم يفكرون عندما تصل سفينة الإنقاذ يقلبون السفينة رأسا» علي عقب فلا يعرف من الربان ومن المهاجر؟ ، وسيكون الإسعاف سريعا لا ينتظر التدقيق والمحاسبة .

الكل يتلوي من الجوع والعطش ، وانقشعت الرؤية من عيـوني ، وصرت خائر القوى ، حتي أسرع (أحمـد) وهـو أكثـر إرهاقـا« منـي لإحضـار (حـلاوة الطحنيـة) وخلطهـا بالمـاء ، واصـبحت أشـرب وأتقيا، واعطي الآخرين يشربون ويتقيأون ، والمركب تسير بهـدوء ولا يوجد سوي الماء والسماء والأمـواج التـي تتلاعـب بالسـفينة ، والجميع كـأنهم في غيبوبـة ، والـذين يشـعرون بـبعض مـن الصـحة يسبحون ويدعون الله ،طلبا» للنجاة ، فالسفينة خاوية عـلي عروشـها من ماء وطعام .

حاولت أن أتحركـ من وسط الركاب ، لأجلس في ركن قصي بعيدا» عن رائحة القيء ،فأحسست أن رأسي يدور ، وشعرت باغماء ووجدت نفسي في منتصف السفينة ، وشعرت بمن حولي يحركـون ملابسهم في وجهي لإستنشاق الهواء ، ورفعت رأسي قليلا فوجدت أكثر من خمسة أشخاص مغشيا« عليهم من حولي ، يبدو انني تعرضت لنوبة اغماء طويلة ، حاولت ان ارتفع بجسدي ولكن هنالك جزء من ظهري يؤلمني فقلت : لابد أنه مرض (السحائي) ، فمعلومـاتي أنـه يصيب الإنسان من جفاف الجسم ، وشدة الحر ، ومع إزديـاد الألم ، أيقنت أنه الموت لا محالة ، حينها إنتابتني خواطر وأفكار كثيرة ، و تذكرت فيها أناس عزيزين علي و أطفالي وأسرتي واخواني .

وكان (عمار) طريحا« جواري ، احضروا شيئا حتي الآن لا أستطيع أن أصف طعمه ، كان يخفيه المصريون ، مشروب طعمه غريب مثل العسل ، ثلاثة أكياس ووضعوه في فمي ، أخذت منه جرعات وشعرت بعيوني تزال عنها الغشاوة ، وجسمي يستعيد بعض نشاطه ، فتحركت من مكاني اتسحب علي أرض السفينة نحو مقدمتها، ووجدت عددا« من السودانيين يجلسون في المقدمة معهم ثلاثة من الإخوة الاثيوبيين ، لقد قرروا أن يستولوا علي السفينة ؛ إذ شعروا بأن المصريين يدورون في البحر بلا وجهة خوفا« من سفن الإنقاذ .

وكان تحركهم سريعا« في تنفيذ الخطة ، وما هي إلا دقائق حتي هاجموا كبينة القيادة واستولوا عليها وأخذوا (جهاز الثريا) واكتشفوا أنه بلا رصيد ، وابعدوا المصريين الذين امسوا خائفين ، رغم صراخهم في باديء الأمر ومحاولة إرهاب المهاجين ، ولكن إصرار السودانيين ومعهم ذاك الحبشي (عبدالكريم ) كما أذكر كانت محاولة جادة ، بحثا« عن الحياة ، وإحساسهم بأن الأمر يجب ان ينتهي فهؤلاء المصريين لا يهمهم المهاجرين ، يهمهم أن يخرجوا من العقاب ، ويمكنهم أن يغرقوا السفينة بكل ما تحوي من أرواح ، والعمل الذي يفكرون فيه تفكير صبياني سيكون نهاياته موت عدد كبير من المهاجرين ، وشاهدت جميع اخوتنا يطوقون كبينة القيادة

ويصعدون في كـل جنباتهـا ، والشـرر يتطـاير مـن أعيـنهم ، وكـأنهم سيرفعون العلم السوداني في سـاريتها ، والطـاقم المصـري يرتجـف ويخرج من الكبينة ويضربون حصارا من كـل الاتجاهـات ، وكـانوا حاسـمين حـازمين بـأن أي شـخص يقفـز في المـاء يقفـزوا خلفـه ويغرقونه ، لقد صار الأمر بين الموت والحياة .

وهكذا تراجع طاقم السفينة ، فخضعوا واستكانوا .

وتقدم أحد الركاب السودانيين اسمه (مصـطفى) كـان بطـلا« لهذه الملحمة فقد انتزع (جهاز الثريا) وبعد عدة محاولات اسـتقبل مكالمة من الزعيم ، الذي هو صـاحب السـفينة ، وطلـب منـه أولا» تغذية جهاز الثريا بالرصيد ، وبعد زمن طويـل ، ومحـاولات تمـت عمليـة التغذيـة ، واتصـل بسـفن النجـاة وكـان ضـليعا في اللغـة الإنجليزية، فشرح لهم بأن السفينة تمـر بظـروف قاسـية ، والوضـع يحتـاج لإسـعاف ، وهنالـك عـددا مـن الوفيـات ، ولحسـن حـظ (مصطفى) كان هنالك صراخا رهيبا من النساء في المركـب ، وعـدد من المهاجرين قد فقد الاتزان ، وكانوا يصرخون من كل الاتجاهات والسفينة تتأرجح يمنة ويسرى ،.فحددوا له مباشرة السير في خطـوط معينة وسألوه عـن ربـان السـفينة ، وكـان الطـاقم حولـه يسـتمعون للمكالمة فقال لهم : لقد تم إنتشالهم بـزورق ، وهربـوا وتركونـا في

منتصف البحر ، فقالوا له أطلب من أي فرد لديه خبرة في قيادة السفن أن يتحرك في خط معين ، او سلموا نفسكم (لمالطا) فرفضنا جميعا (مالطا) وقال لهم مصطفي : سوف نحاول السير في الإتجاه الذي ذكرتموه .

وتحركت السفينة وجميع السودانيين وبعض الجنسيات في الكبينة للقيادة مع المصريين حتي يضمنوا سلامة السفينة متحركين نحو الهدف ، ثلاثة ساعات والسفينة تسير بالسرعة القصوى حتي توقفت فجأة ، لقد تعطل المحرك ؛ إذ شرب الأثيوبيين المياه الخاصة بالمحرك ، نزل المصريون لعلاج المحرك ، ولكنهم عادوا والخيبة تعلو وجوههم لقد تعطلت نهائيا ، لقد شربوا كل مياه (البابور) ، وتصلبت المحركات ولا أمل للنجاة ، وانتهي كل شئ ، والسفينة تتهادي بصورة مخيفة تسحبها الأمواج ، والأمر أصبح في كف القدر ، ولو حاولت سفينة النجاة البحث عنا فلن تجدنا ، فالأمواج بدات تسحبنا بعيدا» ، طلبنا من (مصطفى) الاتصال بالإنقاذ ، واتضح أن الثريا يحتاج شحن والبطارية التي يعمل بها معطلة لذلك يغذي من (البابور) الخاص بالسفينة .

ساعتان والموج يتهادي بالسفينة ، وأظننا ابتعدنا كثيرا ، ولا وجود لإنقاذ ، وتساقط المهاجرين ، وأنهارت معنوياتهم واستلسموا

موقنين بالموت.

حتي ظهرت سفينة بعيدة والجميع يصرخ ، ويلوح لها ولكنها سارت في طريقها ، وكأنها تكتب لنا أن الموت جواره الحياة .

وسقط الجميع في أرضية السفينة متعبين ، منهكي القوى ، حتي جاءنا صوت تلك الصافرة التي كانت بمثابة أجمل لحن في الحياة ، وكأنها تعزف لنا لحن الحياة ، ورفعنا رووسنا لنشاهد تلك البارجة الضخمة من خلفنا وصرخ الجميع :

إنه الإنقاذ .. إنه الإنقاذ ....

## (٥)

صرخ كل من في السفينة ، الإنقـاذ ، الإنقاذ ، وصاروا يتقافزون فرحا» داخل السفينة ، وعـم الهـرج والمـرج والكـل يهنئ من جاوره لقد سقطت الجنسيات، وإنصهرت الدول ، والكل يبارك بلغته ، والسفينة من جـراء الحركـة تهتز والجميع لا يهتم ، بل أن بعضهم يبكي بكاءا« هستيريا» ، وكانت هذه اللحظة التي حذرونا منها المصريين .

فكان جميع السودانيين في أطـراف السـفينة يحملـون العصـي ، وكان (أحمد) وهو ضمن الذين أصـبحوا مـن المسـئولين عـن منـع الحركة ، فالمصريين اندسوا بين المهاجرين ، خوفا« من إكتشافهم ، والسفينة لا يوجد بها مسئول ، وكانت هذه هي اللحظة التي تستدعي الحزم ، فمعظم السفن التي تنقلب بسبب تحرك ركابها بجانب واحد وإهمالهم للتوازن ، وفعلا« عندما ظهرت البارجة ثار الجميع ، فصار السودانيين يضربون كل من يقف ويطلبون منه الجلـوس ومـاهي الا خمس دقائق حتى هدأ كل المهـاجرين ، وجلسـوا بهـدوء ينتظـرون اطلالة الأمل الذي حان ، وكنت أنظر لهذه البارجـة الضـخمة التـي تقبع بعيدا» عنا وتنظرنا ، وترفرف في سـاريتها عـدة أعـلام ، وكلمـا

تحركت نحونا ساقت معها الأمواج الضخمة لتقذف بسفينتنا بعيدا»، وفجأة انفتحت منها بوابة ضخمة من منتصفها وخرجت زوارق أربعة متتالية وبدأت تشق طريقها نحو سفينتنا ، وحاول المهاجرون الوقوف ولكن كانت الأوامر صارمة كل الذين يقفون يجب ضربهم خوفا» من الفوضي ، راحت تجول زوارقهم حولنا ويقومون بالتصوير من كل الجوانب ، طلبنا من الجميع التزام الصمت .

وبدأ يصعد المنقذين الي السفينة ، كات ملامحهم توحي بانهم إيطاليين ، غلاظ أقوياء ، وكانوا ثلاثة أجانب ، طلبوا من الجميع الصمت ، تجولوا داخل السفينة وتفقدوها بصورة دقيقة ، وطلبوا أن ينزل سبعة مهاجرين ، سبعة مهاجرين في كل زورق ، بداية بالنساء ، والمرضي ، والأطفال ، ومن ثم الآخرين ، وممنوع علي المهاجرين النزول بالحقائب ، فقط بالملابس التي نرتديها ، وكانوا صارمين ، وانتشلوا الجثة أولا» ، ومن ثم عملوا على انتشالنا ، إخترنا ملابس نظيفة وتركنا حقائبنا ، وكنت حزينا» جدا ؛ لأهمية الأوراق التي كانت بحقيبتي ، حملت مصحفي والهاتف ، ونزلنا للزوارق كان العدد كبيرا» ، واثناء نزول الجميع من السفينة كان هنالك شخصان يزرعان متفجرات ، فعلي حسب علمي ان السفن التي يأتي بها المهاجرين يفجرونها حتي لا تكون هنالك إحتمالية لعودتها ، واستمرت عملية الانتشال حتي حل الظلام .

كنت أنا واصدقائي في نهاية المغادرين من السفينة ، ويبدو أن الفرحة أنستنا الجوع والعطش ، حتي صعدنا الي البارجة الضخمة التي فرش عليها بساط أحمر ضخم ، وبها قوارير مياه موضوعة في أطرافها ، كانت البارجة ضخمة جدا» تحوي في داخلها مدينة تتلألأ في عمق المحيط ، شعرنا بأننا ولدنا للتو .

أخذت قارورة وبدأت أشرب وحولي اصدقائي ، لم أستطيع أن أكمل نصف كوب منها وجميع المهاجرين ، لقد كان الجوع يحرق احشائنا ، وما هي الا دقائق حتي احضروا لنا الطعام (معكرونة باللحمة) تخاطفناها بشراهة وسرعة وكأننا لم نذق الأكل منذ ميلادنا، وكل اختار موقعا» كانت البارجة تشابه الميادين ، وفي دقائق كان الجميع يغط في سبات عميق .

ومع ساعات الصباح الأولي كنا جميعا أيقاظ ، وتباشير الفرحة تملأنا والبارجة العتية تشق الأمواج منظر يحسنسك بالراحة والطمأنينة ، وكاسات الشاي نتخاطفها منذ الصباح ، وكل ينظر لأخيه ، غير مصدق ، لقد نجونا ، لقد كتب الله لنا عمرا« جديدا» ، والجميع اخرجوا هواتفهم ليطمئنوا أهليهم ولكن لاتوجد شبكة .

وفي الساعة الرابعة ظهرا« لاحت مدينة (سي سينا) بايطاليا ومعالمها الجميلة ، وشقت هذه البارجة طريقها حتي بدأت تلتصق بالشاطئ ، ونحن نشاهد المنظر الخلاب والمناظر الطبيعية ،

وسمعنا أصوات رنين الهواتف ، وتسابقنا نبشر أهلينا فقد وضعنا مبلغ كافي لشبكات الجوال حتي نضمن عمل هواتفنا بايطاليا ، وكان هذا اليوم يصادف آخر يوم من أيام شهر رمضان ، وغدا« (عيد الفطر) ، اتصلت بأسرتي وطمأنتهم وسمعت صوت بكاءهم ممزوجا» بالفرحة ، واتصلنا جميعا بالمأمون الذي استودعناه اموالنا واخبرناه بان (الكراتين وصلت الشقة) ، رغم أنها كادت تضيع !، ونأمل أن نكون آخر (الكراتين) بهذا الطريق ، وطفنا بالمكالمات علي اصدقاءنا الذين يحملون معنا الوجع والألم لنحتفل معهم .

بدا المهاجرين ينزلون من البارجة وشعرنا بأن الشرطة تحاصرنا من كل الاتجاهات ، كانوا يضعوا لكل مهاجر ديباجة حمراء، وكان يسير أمامي أحد المصريين ، وكان من الحراس ، تقدم فجأة أحد أفراد الشرطة الايطالية ولعله من أصول عربية وسأله من أين أنت ؟ كان مرعوبا فقال له:

أنا سوري ، فقال له :

من أين في سوريا ؟

فرد عليه:

من وسط سوريا ، فقال له: عرف مدينتك فصمت ، وسحبوه جانبا ، ويبدو أنهم يعرفون ما يفعلون فقد شاهدت (حسون) ومعه

أحد الاطفال يسحبونه ايضا ، فهم يتابعون هذه السفن بالأقمار الصناعية ، لقد تأكدنا باننا في إوروبا الآن .

وضعوا لي الديباجة وتحركنا جميعا« في صفوف ، حتي قابلنا الاطباء فردا فردا ، وكان هنالك سياج ضخم يحوينا وأجهزة الكمبيوتر وموظفين يجلسون أمامنا ، لقد شعرنا ان الإيطاليين يقودونا لاجراء (بصمة الدبلن) التي تمنعنا من التقديم لدولة أخري، وجميعنا يحلم بفرنسا ، وانجلترا ، والمانيا ، وهولندا وكل يحلم بهدفه ، اخذوا من كل شخص اسمه وبلده في استمارة ، والحصار يزداد والساعة تجاوزت العاشرة ليلا» ، والتعب اخذ أنفاسنا ، والشرطة تحاصرنا من كل صوب ، كانت المجموعات الأولي تبصم وتقودها الشرطة لصعود باصات سفرية تقبع بعيدا« حتي لا تدع مجالا» لصعود أحد المهاجرين بدون بصمة ، أو التحايل عليهم ، رفض اثنان البصمة وكانوا امامنا فسحبوهم جانبا بعنف وانهالوا عليهم باللكمات ، والغريب في الامر ان كل المنظمات تنظر اليهم ، وهم يسحبونهم بالأرض . وحضر مندوب منهم موضحا : أن هذه البصمة خاصة بالشرطة وهي اجراءات جنائية هامة خوفا« من دخول الإرهابيين ، كان يسير أمامنا سوداني قال انه يستحيل ان يبصم علي ما أذكر أنه (محمد الفاتح) والجميع يظنه عنتر زمانه ولكنه عندما شاهد تعامل الشرطة الايطالية ،

والتنكيل بالمهاجرين رأيته يبصم دون حديث حتي !!

فازعن الجميع ، خوفا« ورهبة»، وكانت اجسادنا منهكة ، وقوانا خائرة لا تستحمل التعذيب والإهانه ، والضغط النفسي الذي واجهناه كان كفيلا» بأن يجعلنا مزعنين لإي أمر فبصمنا مرغمين .

وصعدنا الباصات وتحركت بنا الباصات وعرفنا أن المشوار سيكون طويلا» ، وكل راح في سبات عميق .

استيقظنا والباص داخل سفينة متحركة ، وعدنا للنوم حتي توقف امام سوبر ماركت ضخم شربنا القهوة كل علي حسابه وتحرك الباص ينهب الارض نهبا« كان هذا اليوم هو أول أيام عيد الفطر ، ونحمدلله ان أهلنا قد علموا بنجاتنا .

والحقيقة تقال أن ايطاليا بلد جميلة تكسوها الخضرة من كل الجوانب ، وتكتمل بالفن المعماري ، والتخطيط الرائع الذي يبرز لك النواحي الجمالية ، وخطوط السير المنسقة والجسور المعلقة ، وفواصل الأرصفة خوفا من الاصطدام ، والجميع بين مشدوه ، وصامت ، والبعض يغني فرحا» بالعبور المر ، والبعض نائم من الإرهاق حتي وجدنا أنفسنا ندخل مدينة (روما) فالإشارات والأسهم توضح لك المكان والزمان .

وبدأ يشق الباص المباني الشاهقات المزينة حتي توقف أمام بوابة

ضخمة ، وطلبوا منا النزول كنت انا أول الهابطين من الباص ، ووجدنا امامنا رجل طلب منا السير خلفه ، وسرنا حتي وصلنا خلف معمار ضخم به خيم موزعة ، وكراسي تنتظر فيها دورك ، جلست في كرسي ونظرت للذين من حولي فلم أجد (احمد) ولم أجد (عمار ) فرجعت أبحث عنهم في الباص فلم أجد الباص ، وعدت أسال فقالوا أنه توزيع لقد أخذ (٢٠) شخصا هنا فقط ، أما البقية فسيكونون في معسكر آخر ربما قريب من هنا ،كيف ذلك ؟ خططنا كانت واضحة ، أما انجلترا وأما فرنسا ويجب أن نكون مع بعض ، استلمت معدات منزلية حلاقة وشامبو وملابس داخلية ، ودخلت الحمام للإغتسال .

وكأن دخولي للحمام شئ جديدا» علي !، فمنذ أكثر من عشرة أيام لم أستحم ولم أجلس في مقعد حمام ، وشعرت وانا اخلع ملابسي بانها ملتصقة بجلدي ، وخاصة السروال الداخلي الذي استعصي علي خلعه الا بمجهود ، ويبدو أن ملابسي الداخلية اختلطت بالجلد ، وكلما ازيح جزءا« يتساقط جلدي وينزع واحسست بالألم الشديد ، لقد صار جسمي ملئ بالتقرحات، حتي تغيرت الوان ملابسي الداخلية المخلوطة بالجلد، وامسي جسمي من الداخل عبارة عن خرائط توضح شكلية الجروح المتقرحة من أثار نزع الملابس ، وشكل جرح غائر يتضح ، مما جعلني اشمئز من نفسي وأشيح بنظري عن المشاهدة ، وكأني مصاب بإنفجار قنبلة واعمل في ازالة الشظايا التي علقت بي ، ويسمع الجميع آهاتي

خارج الحمام ، وبعد ان انتهيت شمعت جميع ملابسي الداخلية بكيس بلاستيكي حتي لا يراها أحد فقد اصبحت مزيجا» من القطن ، والجلد ، والدم ، وكان انتظاري لإخراج الاذى ، امر موجع ، يكاد وصفه يشابه ألم المخاض، حتي إنتابني إحساس بأن المسالك البولية جميعها أغلقت بفعل الزمن فأكثر من عشرة أيام تعد فترة قياسية لتحمل الإنسان ، ولكنها تعد التجربة الأقسى في حياتي ، وحتي ارتداء الملابس علي جسم مثخن بالجروح كان امرا« صعبا» ، وخرجت وانا استمع لصرخات غيري أشد ألما« وقسوة ، اذا ان التجربة لا تخصني لوحدي ! .

لا داعي للبكاء علي الماضي ، فأنا الآن ارتدي عباءة مستقبل جديد ، وكان الطعام يدل علي أننا فعلا» وصلنا أوروبا ، والمعاملة توحي بأني إنسان يعامل بانسانية .

حاولت أن أنوم قليلا ، ولكني لم استطيع فقد كان الجو حارا ، تركت الهاتف في الشاحن وانتظرته ، فنظام (الواي فاي) لا يحتاج لشريحة وسأعرف اين هم اصدقائي ، فإيطاليا ما هي الا نقطة عبور ، ولكن الخروج منها يبقي سهلا« بالتخطيط ، وجدت (واي فاي) قريب من المعسكر لكن (أحمد) غير متصل (وعمار ) فقد هاتفه في المركب تركت (لأحمد) رسالة عندما يتصل يحدها وكانت فحواها :

(اعلمني بمكانك).

واستقبلت التهاني والتبريكات من أسرتي فردا فردا ، واصدقائي الجميليين بالسودان ، وتلك الأخت الوفية (صوفيا ) التي كانت متابعة لأحداث رحلتي ،حتى وصولي.

وتفرغت أسامر ابنائي ، وانا بين السعادة بالنجاة وعذاب الإبتعاد ، فانا حاليا بمدينة روما ، عاصمة الجمال والسحر ، كانت المنتزهات منتشرة أمامنا ، والبارات تزخر بالرواد ، والجنس الناعم يتساقط كالامطار الرهيبة في عينيك ، وتجولت بلا دليل حتي تاهت مداراتي ، وانكسرت بوصلتي ، والجميع من الايطاليين سعيدا كأنهم هم من نجو من السفينة .

وتأملت شفق المغرب وانا مبتهج كأني طفل تدحرجت كرة من يده، وتسابق مع الريح حتي يمسكها، حتي وجدت نفسي أمام بوابة المعسكر.

كان بالمعسكر (٢٠) شخصا« من الذين كانوا معي في السفينة واذكر منهم (مصطفي-مجتبي-والي الدين -صابر- عبدالله -ووو) تسامرنا وتضاحكنا وهنأنا أنفسنا بالعيد ، وكنا بقدر فرحتنا بسلامة الوصول ، إلا كنا أكثر حزنا» لهذا اليوم الذي هو--- أول أيام العيد-- ونحن بعيدين عمن نحب .

وكل صعد الي فراشه يحلم بعالم جديد وأماني قيد الإنتظار .

خرجت صباحا في جولة جميلة أخري ، وفهمت الطرق والمسارات ، إعدادا« للهرب من المعسكر ، ولم يكن الهروب بعسير ولكن يجب ان أترك الاشياء التي اعطوني لها ، فاجتمعنا نحن السودانيين وكنا أربعة من جملة الهاربين من المعسكر ، وكان همنا الوصول لمحطة القطار وهو أمرا» ليس بالهين ، ويحتاج لمعرفة أو خبير ، فخرجت واتصلت (بالواي فاي) علي احد معارفي وكان رجلا« مميزا» ، فشرح لي طرق المحطة التي تتحرك منها القطارات ، ان مقصدنا هو مدينة (فالتميليا) اخر نقطة حدودية بين ايطاليا وفرنسا ، وتحف رحلتنا المخاطر من كل جانب فهنالك مراقبة شديدة ، وشرطة متواجدة في كل شبر ،والايطاليين شعب يعشق لغته لذلك لا يقبل التعامل باللغات الأخري ، لذلك عندما تتحدث معهم بأي لغة يشيحون عنك بوجههم رفضا« للتحدث بغير اللغة الإيطالية، فتجد نفسك معزولا» من المعلومات التي تحتاجها .

عدت وشرحت للثلاثة الذين اتفقت معهم ، وكانوا علي أهبة الاستعداد ، وخرجت وانا أتلصص علي كل (واي فاي) لعل وعسي ان يتصرف (احمد وعمار) حتي لا نغادر مدينة (روما) بدونهم ، كان أول باص حدد لنا اعتلاءه قد حضر ، وصعدنا علي متنه ونحن لا نعرف كيف ندفع الأجرة !!

## (٦)

ركبنا الباص الداخلي متحاشين المحصل ، أو كما يطلق عليه في السودان (الكمساري) ومفتشي الشرطة، ونراقب ونتابع كل شاردة وواردة ، وعندما نشاهد شرطي تجدنا ننزوي بجانب ، وبعد أن وصلنا المحطة إتضح لنا أن المواصلات الداخلية مجانا !! وصلنا المحطة والساعة تقارب الثالثة ظهرا»، ونحن نبحث عن القطار إتصلا (احمد وعمار) ، اوضحنا لهما مكاننا وكانا ايضا قد هربا من معسكر مغلق في ضواحي (روما) ، وانتظرناهم حتي حضرا ، وبينما ونحن في انتظارهم اتصلت بصديقي (نادر) المقيم في إيطاليا وأعطاني رقم أحد الأصدقاء ليساعدنا في ركوب القطار فنحن لا نملك أوراق ، والتذاكر مقرونة بالمستندات ( جواز او بطاقة) ، كما أن الحكومة الإيطالية تتشدد في الحد من الهجرة عبر بلادها بسبب إتفاقية (الدبلن) الملزمة ، والتي فيها إجحاف إذ ان الذي يبصم في أي دولة لا يحق له تقديم لجوء في دوله سواها ، واذا قدم طلب في دولة سواها تعيده للدولة التي أخذت بصمته ، إلا في الحالات الخاصة .

اتصلت بالصديق الذي أعطاني رقمه ، ووجدته وشرحت له

الأمر فطلب مني انتظاره خارج المحطة حتي يأتي ، أوضحت للذين معي فطلبوا مني أن أتركهم يتحركوا لوحدهم ، افترق منا الثلاثة الذين كانوا معي في المعسكر ، علي أمل اللقاء في (فالتميليا) فجميعنا كانت وجهتنا واحدة .

وجلسنا انا و(احمد) و( عمار) خارج المحطة ننتظر ، حضوره (سليمان) كما عرفنا بنفسه بعد حضوره ، وقال لنا ان القطارات مراقبة ، من الأفضل لكم أن تركبوا الباصات فهي أرخص ومأمونة ، وهنالك طريق مختصر ، سوف تجدون أنفسكم في زمن وجيز في مدينة (فالتميليا) اقنعنا بحديثه وتحركنا لمحطة الباصات وكانت قريبة ، خمس دقائق بباص محلي ، وماهي الا خمس الدقائق ونحن داخل محطة البص دخلنا معه لشباك التذاكر ، ووجدنا سعر التزكرة (٥٠) يورو ، دفعنا له وطلب منا انتظاره خارجا حتي يقنعهم بأن يعطونا تذاكر بلا مستندات ، وذهب وعاد يحمل التزاكر ، فرحنا وتجولنا في المدينة الإيطالية ، وكان موعد الباص السابعة مساء ، واشترينا (تيشرتات ) لأن ملابسنا بدأت تتمزق ، وتتسخ بصورة ملفتة للأنظار ، تجولنا ومعنا (سليمان) حتي اطمئن علينا ونحن نركب الباص شرح لنا طريق الوصول المأمون (لفالتميليا) ، وودعناه وتحرك البص قرابة ساعة ، وعند أول تفتيش اعتلت الشرطة الباص وطلبوا منا الأوراق فأبرزنا لهم التذاكر اطلعوا عليها

ونحن ندعي بعدم المعرفة والبلاهة ، فتحدثوا معنا باللغة الإنجليزية وعرفنا أن التذاكر التي اشتراها (سليمان) تذاكر مخفضة السعر التذكرة (٢٠) يورو !!، ونزل العساكر بعد ما فشلوا في معرفة اتجاهنا ، فالباص متجه لمدينة (جنوة) وهي مختلفة عن النقاط الحدودية ، وهو تضليل في المسار حتي لا يكون الأمر مكشوفا ومن هنالك سنركب قطار فرعي لمدينة (سافونا) ومن هنالك سنركب قطار عرضي لمدينة (فالتميليا) ، المهم في الأمر الخطة تسير بصورة جيدة والنقود التي سلبها مباركة عليه ، ولو طلبها لأعطيناها له! .

سار البص طوال الليل وإرهاق الأيام السابقات جعلنا ننام مثل الموتى ، حتي توقف ، والشمس لم تخرج من مخباءها ، ونزلنا في محطة تتشابه مع وصف (سليمان) وتحركنا حتي وجدنا محطة القطارات والبرد يعصف بنا مع ساعات الصباح الأولى ، وانتظرنا حتي تبتعد الشرطة التي تتحرك بصورة منتظمة ، ولما ابتعدوا ، تقدمنا للشباك وطلبنا التذاكر ، كانت أشكالنا مريبة ، والخوف يتلبسنا فالذي يقبض عليه تتم اعادته لمعسكر في جزيرة (سي سينيا ) وهي تقابل دولة تونس ، والخروج منها أمرا« ، صعبا» ، اعطتنا الموظفة التذاكر وما هي الا دقائق حتي كنا نجلس في القطار المتجه الي (سافونا) وكانت المسافة تتجاوز الثلاث ساعات ، في مسار شبه عرضي ، والمناظر جميلة ، والطراز المعماري يوحي بان إيطاليا

تذخر بالمهندسين ، وكان معظم الركاب من الجنس الأسود ، وهم يشابهوننا في اللون ، ويختلفون عنا في الوطن واللغة ، ووصلنا المحطة النهائية ، وتجولنا حتي وجدنا القطار العكسي الي (سافونا)، وكان الأمر سهلا» ، استمتعنا ونحن ننتظر القطار ، ورشفنا في المحطة القهوة ، وفطرنا ببعض الكيك ، ولم يكن هنالك وقت فركبنا القطار المتجه الي (فالتميليا) ، ومعي (أحمد وعمار) المتزمر بسبب ضياع جواله ولكن عزائه في أنه خرج سالما من هذه الرحلة المشئومة .

كنا الثلاثة ونحن نصل الي محطة (فالتميليا ) والشرطة تحاصر البوابات ولكننا تعلمنا ان الثقة وعدم الأهتمام بالنظر لهم ، والثبات، وعدم الإلتفات هي ميزة يجب العمل بها في هذه المواقف ، وخرجنا ونحن نتحرك لا نعرف الي أين نمضي ولكننا لا نتوقف ، ونتحرك في اتجاه حركة الناس ، حتي وجدنا أنفسنا في قلب سوق ضخم ، نحن نعرف أن بعض المهاجرين لفرنسا موجودين هنا في (فالتمليا) ولكن أين ؟ هذا هو السؤال ، بحثنا عن أي سحنة عربية تسهل لنا الرد علي هذا السؤال حتي وجدناه ، فحدد لنا مكانهم انهم يقبعون تحت الكبري في الكنيسة القديمة ، وأشار الينا بالاتجاه ، فتحركنا ونحن نطوي الارض طيا ، حتي وجدنا أنفسنا تحت الكبري ، وكان موقف عربات ضخم ، وجواره الكنيسة والجنسيات الأفريقية مرقدهم

الأرض ، يفترشون البطـاطين ويلتحفـون الكبـري ، وبـدأت رحلـة التعارف ، وطلبوا منا الدخول للكنيسة فهنالك وجبـة غـداء ، وكـان الجوع قد أخذ منا ما أخذ ، فتقدمنا نحو الكنيسة ، فبهرنا بكمية هـذه البشرية التي تدهش ، إنهم لايقلـون عـن ألـف مهـاجر بـل يزيـدون ويقفون في صفوف طويلة داخل الكنيسة للطعام ، وكان الطعام يقدم بورقة ، يختمها مكتب الكنيسة ، فصعدنا لنأخذ ورقتنا ، واستلم كـل شخص ورقة صغيرة هي كتصديق تتعامـل بـه ، كانـت الوجبـات في مجملها عبارة عن (معكرونة) وقطعة فاكهة تناولنا طعامنـا ، وقابلنـا بعض المهاجرين ، ووجدنا صديقنا (عموش) فقد تحـرك في رحلـة بسفينة قبل شهر، ووجدناه يسكن في الكنيسة مصاب بكسر في القـدم اليمنى ، اسعدنا لقائه وحزنا لإصابته ، فجلسنا لنعـرف سـبب كسـر قدمه ، فاجاب :

نتيجة محاولة لدخول لفرنسا ، فهنالك سلسلة جبال تـربط بـين فرنسـا وإيطاليـا ، وقـد سـقطت في الهاويـات وقـدر الله ، وهنالـك صعوبات كثيرة من ضمنها ان العبور يجب ان يكون لـيلا» ، وتمنـع الاضاءة ، والصوت ، لقد اصبت وهـرب منـي الجميـع ، ورفضـت السلطات الفرنسـية طلـب دخـولي فتمـت إعـادتي (لفالتمليـا) وانـا مكسور .

وعليه اجتياز هذه الجبال صعب ، والشرطة تحاصر الجبال من كـل الاتجاهـات ، والأفضـل هـو التهريـب عـن طريـق السيارات الصغيرة ، وهذا ما يجب أن تفعلونه من أجله سلامتكم .

تدخل (عموش) وقال لنا:

ارتاحوا حاليا فالأمر ليس كما تتصورونه ، فالشـرطة الفرنسـية شـددت المراقبـة والوضـع اصـبح صـعبا ، وفعاليـات (الأمـم الأوربية)تقام في هذه الايام والفرنسيين حذرين خوفا« من الهجمات الإرهابية ، والعبور بالأرجل يعد مخاطرة كبيرة ، وانا أحد ضحاياه ، فقد سقطت من الجبل ، لإنعدام الرؤية ، وسوء الطريق ، وخطورته ، وحتي لو عبرت فالمواطنيين الذين يقطنون هذه المدن منذ رؤيـتهم لغريب يبلغون الشرطة ، والمدينة الآمنـة الوحيـدة هـي (مارسليا ) وهي بعيدة جدا» ونسبة لهذا الكم الهائل مـن المهـاجرين والبطولـة الاوربية ابتعد المهربين ، واصبحوا يخافون علي أنفسهم ، والمهربين الموجودين رفعوا تكلفة التهريب الى (مائة وخمسين) يـورو هـذا اذا وجدوا .

احبطنا حديث (عموش) ، فتفرقنا داخل الكنيسـة للاسـتحمام والراحة ، خرجت من الحمام وذهبت أبحث عن ركن بعيدا، فلـدي صلوات كثيرة صارت دين يجب الإيفـاء بـه ، فرجعـت (العمـوش)

وهو في الباحة الخلفية للكنيسة ، وحقيقة ما وجدته يدهش كان هنالك أكثر من ثلاثة صفوف متراصة تصلي العصر ، والغريب في الأمر أنه داخل الكنيسة ، والأغرب أن الرهبان والقساوسة يوزعون الأكل والشراب ولا يعيرون المصليين اهتماما» وكأنهم يسيرون بمبدأ (لكم دينكم ولي دين) ، بل يساعدون المصليين في توفير المصالي ومياه الوضوء ، وجال بخاطري سؤال ، لو دخل احد المسيحيين جوامعنا وحاول ان يصلي صلاتهم ماذا سيكون مصيره ؟ والله لو طلب فقط أن يصلي فقط دعك من الصلاة سيكون في أمر جلل !!

انتهيت من وجبتي واجتمعنا ثلاثتنا ، وكان الليل قد بدأ يرمي بإشعته المظلمة ، وكنا نحتاج اولا» توفير المال ، وكل علي حسب مجهوده اتصلت بأخي في (ابوظبي) ووجدته كما توقعته ، وصلتني حوالة بمائة يورور و(احمد) ايضا ، و(عمار) تعثر بعض الشئ ، ولكننا اجتمعنا علي شئ بلا خلاف ، انتظرنا بالليل لمعرفة ، المهربين وهم اصحاب التاكسي ، ولم يظهروا ، كان هنالك كمية من المهاجرين يحاولون العبور بأقدامهم ، والمحظوظ تقبض عليه الشرطة وتعيده الي (فالتمليا) ، اما السئ الحظ فيكون مصيره جزيرة (سي سينيا) بلا عودة الا بعد شهور ، نمنا امام الكنيسة في برد قارس، وليل طويل ، واصبحنا علي مجموعة كبيرة من اصدقاء السفينة الذين

كانوا معنا ، علي راسهم (علاء الدين ومصطفي ومجتبي وعبـدالله) ، واسماء كثيرة ، وكانت هنالك محاولة من زميل ، كـان مـن حـراس السفينة حافظ تم القبض عليه وأعيد (لفالتميليا )، جلسنا طول النهار نفكر وندبر حتي ظهر لنا أحد الاخوة ويبدو مـن شـكله انـه يعـرف المنطقة شبرا شبرا ، وصاحب تجربة ، ومعه سوداني قالوا لنا يمكننـا ان نعبر بكم بالأقدام ، لم نعطيهم ردا« كان هذا اليوم هو يوم (النهائي لكـأس الأمـم الأوربيـة) يجمـع بـين فرنسـا صـاحبة الأرض ، ودولةالبرتغال ، خرجنا نبحث عن التاكسي فقالوا لنا التكاسي بسبب البطولة وصعوبة التهريب اصبحت عمولـة الركـاب (١٧٠) يـورو للفرد وكانـت غاليـة وهـو نـوع مـن الاسـتغلالية ، ومعظـم سـائقي التكاسـي كـانوا مـن الجزائـرين والفرنسـيين والأفارقـة ، شـاهدنا المباراة، ونحن في خلاف وائتلاف ، فخطرت لنا فكرة تجربة العبور بالاقدام ، وكان (أحمد وعمار) يحملان هما» كبيرا الا وهو أنـا ؛ فقـد كان جسمي ثقيلا» ، وكنت مرهقا من السفينة ، والجبال التي سردوا لنا حكاياتها تعد خطرة ، ويكفي ان نتعظ بموضوع (عموش) ولكـن وجودنا في ايطاليا يأزم الوضع والمهاجرين يتزايدون يوما» بعد يوم .

لقد قررنا العبور علي الاقـدام وحـددنا الـزمن وكانـت السـاعة (١٢) ليلا« ولم يبقي عليها سوي دقائق ، فاعددنا أنفسـنا ، وانطرحنـا عـلي الارض مـع اخوتنـا واسـتغرقنا في النـوم لبرهـة حتـي نشـعر

(بالتونسي يقف في راسنا وكان يدعي (علي) ومعه مساعد سوداني ، اتفاقنا ان تسليم النقود بعد الوصول وكل فرد يدفع (ثلاثين يورو) ، وقفنا جميعا في نقطة تجمع كان عددنا يتزايد ، كان البرد شديدا» والظلام حالك ، ونحن لانملك ملابس شتوية ، كانوا يدخنون سجائر تبغ ملفوف فمعظم الدول الأوربية يحبون التدخين السجائر الملفوف بأيديهم ، طلبت من (علي) السجارة التي يدخنها لتخفف عني شدة البرد ، وكان كريما» معي فأعطاني السجارة بلا مقدمات دخنتها علي عجل خمسة رشفات مشبعات ، فهمزني لإعادتها له ، وكان طعمها غريبا بعض الشئ ، فسأله صديقه الذي كان معه :

هل هذا الحشيش من النوع الجيد؟؟ ، حقيقة إنذهلنا جميعا ، وبدأ (أحمد وعمار) ينظران لي ، فطمأنتهم وانا أشعر برأسي أضخم من الكبري الذي نتحدث تحته .

كان عددنا قد بلغ ( ١٧ ) مهاجرا فتحركنا نحو طريق القطار والظلام دامس ، وتحركنا علي شكل خط طويل ، وكنت من المتذيلين وبدأت تنتابني هلاويس السقوط ، والتشيكك في ظهور القطار مع العلم أن القطارات تتوقف بعد الثانية عشر ليلا» بين فرنسا وايطاليا ، واصارع تفكيري واقنع نفسي بأن القطار لا يمكن أن ياتي ، واتلفت يمنة ويسرى ، وتراودني أحاسيس غريبة أني لو مت

أموت وانا مدخن للحشيش!! ، وأأكد لنفسي بأنني سأقابل أبو جهل وأبولهب ، فلا يمكن لمدخن حشيش ان يدخل الجنة بهذا الذي يملأ رأسه ، كان قضيب القطار يمتلئ بالصخور والتونسي (علي) الدليل لرحلتنا و(عمار) أمامنا ومجموعة المهاجرين أو المتسللين في الوسط ، وانا وأحد المهاجرين اسمه (أشرف ) علي ماأذكر في ذيل الركب ، واحمد يتقدمنا بخطوات ، ونحن نسير بمحازاة بيوت الإيطاليين ، ومنعنا الدليل من إنارة الجوالات حتي لانلفت الإنتباه ، رغم كثرة تعثرنا ، وعند سماع أقل حركة يأمرنا بالإنخفاض ، والصمت ، ونحن نسير بلا هدى ...

## (٧)

قطعنا أكثر من (سبعة) أنفاق وأنا اتأرجح برأسي ؛ مخافة ظهور القطارات والظلام يخيم ، والاضاءة ضعيفة ، والحجارة تأكل اقدامنا أكلا» ، حتى تورمت قدماي ، وصعدنا سلالم أحدى البنايات حتي وصلنا قمتها ، ووجدنا أنفسنا في شوارع دائرية يكون مرور سيارات الشرطة كل ربع ساعة ، فنختبئ بين الهاوية والسياج الفاصل ، وكانت اصوات أقدامنا يسمع صداها من بعيد ، حتي وجدنا أنفسنا أمام سلسلة الجبال التي تفصل بين إيطاليا وفرنسا فتصعد الجبال وانت في ايطاليا، وتهبط منه وانت في فرنسا ، ولكنها سلسلة شاهقة ، فطلبوا منا الإستعداد كانت آثار (الحشيشة) تخيم علي رأسي ، ولكنني واجم صامت ومعي (أشرف) وامامي (احمد) فبدأنا رحلة الصعود ، وكانت بدايتها سهلة لحد ما ، وانطلقنا نسير صعودا« بالجنبات في خط واحد، ونمشي علي آثار من سبقونا ، فتضع الجبل علي يمينك والهاوية علي يسارك ، والتركيز أهم ما في الأمر ، فالاخطاء ترسلك للعالم الآخر ، ولكننا حزمنا أمرنا واقتنعنا ، ولا رجوع لعازم ، كانت الأشجار تعيق تحركنا ، والذين في المقدمة تقدموا كثيرا ، فالدليل التونسي سريع الحركة ، واصبحت أنبه (أحمد) مرة ، وينبهني تارة من

الأشجار في جانب الطريق ، وفي لحظة وضعت قدمي بطرف الهاوية التي تغطيها الحشائش فتهدمت وانزلقت قدمي ، وهوى جسمي ، وشعرت بجسمي يسقط ، وتحركت يداي بسرعة الضوء حتي شعرت بأني أتشبث بالصخور ، وسحبت قدمي بعد أن إلتوت ، وحمدت الله على رحمته ومنه ، وجميعهم يسيرون بلا التفاتة فلم يروا ماحدث لي لشدة الظلام ، وعندما نظرت من الهاوية التي لو قدر لي السقوط فيها ، لتمزق جسدي أشلاء قبل أن يصل الأرض ، فمجرد النظر اليها يصيبك بالدوار ، وعدوت نحوهم وفضلت عدم أخبارهم حتي لا أصيبهم بالخوف ، ولكن كان علي أن اتجرد واخبركم أنا أيها القراء ، إن جبال (فالتمليا) هي مقبرة للاحياء ، تحركت وقدمي تئن وأصارع الألم ، وأرفض الاستسلام ، وفهمت أن اختيار التوقيت من قبل الدليل لهذه الرحلة ليلا سببه ان المهاجرين لو شاهدوا مسارهم وهم يسيرون والخطر يحفهم يمينا ويسارا لما ركبوا هذه الصعاب ، ولو شاهد العابرون ما شاهدت سيرفضون العبور الي فرنسا علي اقدامهم ، كنا قد وصلنا منتصف الجبل وأنفاسنا تتلاحق ، وأقدامنا متقرحة ، فتوقفنا للإستراحة ، وكانت الاستراحة في أحد الكهوف داخل الجبل ، واشعلوا السجائر وقدموا لي واحدة فرفضتها ، وهم يضحكون ، وارتشفنا بعض المياه ، ورأيت في الظلال اشياء تتحرك في بقعة قريبة منا فقال لي المهرب :

لا تنظر إنهم مهاجرين ايضا حضروا مع دليل آخر ، وتحدث معي وقال :

ان الخطوة القادمة هي نهاية المشوار ولا يمكنني أن أهبط معكم لفرنسا ، ولكنها الأصعب فالارتفاع شاهق ، ويجب أن تضغطوا علي انفسكم حتي تصلوا السياج ، فهو سياج ضخم موضوع كحد فاصل بين فرنسا وايطاليا في قمة الجبل اومأت له برأسي بأننا جاهزون .

وانطلقنا ، وكان المسار حقيقة يحتاج مرونة وخفة ، ولكننا آلينا علي أنفسنا مساعدة بعضنا البعض ، وكانت كأنها معركة في التسلق والإنزلاق ، حتي تمزقت اجزاء من ملابسنا ، وأدمت الصخور اجسادنا ، وكلما رفعت رأسي أجدهم حولي وهم يرفعون هذا ويدفعون ذاك ، كان الجبل مسطح في الارتفاع وتعتمد في الصعود علي نتؤات الصخور ، وجذور الاشجار ، ودائما جذور الاشجارتكون ملئ بالحشرات والزواحف ، والإنزلاق بعد الصعود يعد الهبوط الي العالم الآخر ، كنت انتعل حذاء كاشف ، والصخور الصغيرة تتغلغل داخله .

قرابة الساعة ونحن نصارغ كأننا قرود ، ونتشبث هنا ، ونمسك هناك ، والعرق يتصبب من اجسادنا كأننا نصارع الماضي لنصعد الي المستقبل .

حتي ظهر لنا سياج ، وكان ضخما وعاليا ومخيفا ، فخشينا ان يكون موصل بأسلاك كهربائية ، جلسنا تحته واستبدلنا ملابسنا ، وطلب منا الدليل نقوده ، والمدينة الفرنسية تطل أمام أعيننا ، وكان اتفاقنا معه بعض التخفيض فأعطيناه ثلاثتنا (سبعين) يورو شريطة اذا تم القبض علينا يكون هنالك محاولة أخري مجانا ، وقام البقية بإعطائه المبلغ المتفق عليه ، وشكرناه ، وقادنا لمكان فتحة صغيرة في السياج قام المهربين بقطعها ، ليتسلل المهاجرين من خلالها ، فدلنا عليها وطلب منا الهبوط بدون ضوضاء وعلي مجموعات صغيرة ، حتي لا يكشف أمرنا ، ودلنا على مكان محطة الباصات حتي نصل لمدينة (نيس ) رقم الباص (١١٠) وأضاف قائلا:

وهذه المدينة التي تهبطون عليها اسمها ( مونتي ) وانطلق هو ومعه زميله السوداني عائدون .

وكان الواصلون لهذه المرحلة سعداء بما حققوه ، تسللنا بهدوء وبدأنا في رحلة الهبوط وكانت هنالك اسلاك ضخمة ، ووجدنا صخرة ضخمة فجلسنا عليها ، واعددنا الخطة ، حينها قاربت الشمس علي الشروق ، توزعنا الي ثلاثة مجموعات ، وهبطت المجموعة الأولي ، وبعد نصف ساعة هبطت المجموعة الثانية ، وهبطنا نحن وكنا سبعة هبط أربعة قبلنا ، وانا و(أحمد وعمار) هبطنا

في النهاية ، كانا أسرع مني ، وكان الهبوط في ازقة ضيقة ، وعدم اختيارك للزقاق الصحيح يعود بك من الأول .

نحن الآن على مشارف فرنسا ، ودخلنا هذه الازقة كأننا ندخل متاهة ، وواجهتنا اصوات نباح الكلاب ، فالفرنسيين والايطاليين مبانيهم مشيدة تحت الجبال مباشرة ، واظنهم يستمتعون بالمعمار في المناطق العالية ، وبشكلية مبتكرة ، ومعظمهم يقتنون انواع من الكلاب الضخمة ، ويتفاخرون بها ، واثناء هبوطنا وجدنا مجموعة تائهة لم تخرج من الأزقة ، نسبة لإلتصاق المباني بالجبل بصورة تعتم الرؤية ، ودرنا في هذه الساقية حتي وجدنا منفذ الخروج ، ولكن اقدامي بدأت تؤلمني ، وتزداد تورما ، وآلام مبرحة علي بطني وصدري من جراء الصخور ، وبدأت رجلي التي انزلقت عليها تثقل، فطلبت منهم التقدم ، وتركي علي راحتي ، وتقدموا وانا أسير خلفهم أنظرهم من مسافة بعيدة ، وأسير علي خطاهم حتي شاهدنا الشارع المقصود للوصول لمحطة الرئيسية فسرنا بمحازاتها وهم يسرعون الخطي ، وخلفي اثنان من المهاجرين لا أعلم من اين أتوا !! .

وفي هذه اللحظة سمعنا صوت صفارة النجدة وعرفت ان الشرطة ، خلفنا مباشرة ، وفجأة اختفوا من كانوا يسيرون خلفي في أحد الأزقة ، فنظرت أمامي فلم أجد (أحمد وعمار) يبدو ان الجميع

هرب ، وصوت سيارة الشرطة يرتفع خلفي حتي دنت مني فتوقفوا ينظرون لي ولكني لم أنظراليهم ، كأني لا اهتم بهم ، وأيقنت أن أمري إنتهي ، وطفت بخيالي في مدينة (سي سينيا) ورحلة الخروج منها ، فكرت في العدو ولكنه لن يجدي ، سيقبضون علي في دقائق ، واشعر بعيونهم تتأملني واشيح بوجهي كأني استمتع بالمناظر الجميلة لهذه المدينة ، تخطتني سيارة الشرطة بهدوء وسارت في طريقها ، واصلت سريعا ، وانا أفكر هل أبحث عن اصدقائي أم أخرج من هذا الجحيم؟! ، وهداني تفكيري الوصول لمحطة الباصات فهي تجمعني باصدقائي ، كان مكانها صعبا فقد كانت في منتصف المدينة التي لم أرها ولم أسمع بها الا الآن ، صرت أبحث بجد حتي تعبت ولكن هداني تفكيري لشئ ، وشاهدت اثنان من المهاجرين الذين فروا من الشرطة يجلسون مستسلمين فسألتهم :

لماذا تجلسان هكذا في منتصف الطريق ، فقالا:

لم نجد المحطة ، ومن الأفضل أن تقبض علينا الشرطة لتعيدنا فنحن لا نستطيع السير أكثرمن ذلك ، ويئسنا ، جلت بنظري في المنطقة فقلت لهم :

لقد وجدت المحطة ، فقالوا لي متلهفين : أين ؟؟، فأشرت لهم لسيدة تحمل حقيبة سفر ، ومعها أبنتها ، وقلت لهم نتبع هذه السيدة،

وفعلا تبعنا السيدة وإبنتها حتي وجدنا أنفسنا داخل محطة الباصات، وإصطفت الباصات ، وجدنا الباص الوحيد الذي يخرجنا هو بص مدينة ( كان ) فركبنا ، واعصابي متوترة ، لقد فقدت اصدقائي ، والباص يهم بالإنطلاق ، حتي شاهدت (أحمد وعمار) وهم هائمان علي وجهيهما لا يعرفان أين يذهبا ، فهبطت من الباص بسرعة وأشرت لهما ، وما هي الا ثواني إلا وهم جوارنا داخل الباص ، وهم جميعا يسقطون في المقاعد ، كانت اكثر من سبعة تساوي صراع الترحال ، وآمال الرجال ، ووحشة الإنتصار .

وتحرك الباص وكان يقودنا من خطر الي خطر فالمدينة التي نحن سائرون عليها هي ايضا تعيد المهاجرين لإيطاليا ، وجميع مواطنيها من البيض الا ما ندرأن تجد البشرة السمراء وسط مواطنيها ، وتبقي مدينة (مونتي) تتشابه مع شعاع الشمس في ضياءها ، تلك الصبية التي تنام علي شاطئ البحر تشكل ميناء وتحمل مبانيها الأناقة الفرنسية ، وتدور فيها الحدائق والمنتزهات ، وتشاهد صورتك علي ارضيتها من جراء النظافة ، وتشاهد التخطيط الذي يبرز لك ملامح جمالها من كل جانب ، انها لا تشبه الا نفسها إنها (مونتي) الساحرة ، لقد فضلنا التقدم علي مراحل ؛ خيرا« من الجلوس مكتوفي الأيدي ، وحددنا خطوتنا القادمة مدينة (كان ) وكنا خمسة مهاجرين ووجدنا أحد الصوماليين وهو رجل خبر الحياة وخبرته ، وأحس بمعضلتنا

وربما نخوة حركته او تاريخ مر به فشاهده في عيوننا فوجده مشابها» لتاريخه ، المهم وجدنا أنفسنا تحت نخوته وحفنا بحمايته فركب معنا حتي مدينة ( كان) وكانت تزخر بالشرطة ، ولكنه يسير أمامنا ويتحدث الفرنسية بطلاقة توحي لمن حولنا أننا مقيمين في فرنسا ، ووصل معنا لمحطة (كان) واعتلي معنا الباص المتوجه لمدينة (نيس) ولم تكن مدينة (كان) تقل جمالا« واناقة وتخطيطا عن (مونتي)، ورغم ما مررنا به من معاناة وإرهاق والألم ، ولكن عيوننا التي تعشق الجمال تدور لتستمتع بالمناظر، وتحتفي بالتنظيم وعظمة التطور وجمال الطبيعية ، وارتفعت روح التحدي في دواخلنا ، وامسي الخطر يتضاءل ، وقوة تحملنا ترتفع شيئا فشيئا ، واظنه من جراء المشاق ، فبحثنا حتي وجدنا مكان باصات لمدينة (مارسليا) ، وكان معنا (الصومالي) استودعنا بعدما اعتلينا الباص ، ونحن فرحين، وتحرك بنا ونحن نكاد أن نقفز في داخلنا من الفرح ، ونمنا مجمل المسافة حتي وصلنا الى مدينة (مارسيليا).

لقد أنتصرنا ، لقد أصبحنا في مأمن .

## الثانيــة (٨)

ووصلنا ثلاثتنا مدينـة (مارسـيليا) وأصبحنا في مـأمن ، والسـاعة تقـارب ووجدنا معظم الباصات التـي تتحـرك لباريس قد غادرت ، وأسعار القطارات غالية ، والصعود للقطار مـرتبط بالتـذاكر للكـم الهائـل مـن رجـال الشرطة ، وبعد مداولات بيننا وتفكير خلصنا الي شراء تـذاكر ولكـن لأول المحطة فقط ، ونتحايل عـلي أمـن القطـار حتـي نصـل مدينـة باريس ، أشترينا التذاكر كانت الثلاثة (بثمانية عشـر يـورو) ، ونسـبة لثقتنا الزائدة قفزنا في أول قطار واخترنا موقعا جيدا« بحيـث لا يرأنـا أحـد ، خاصـة بعـد أن عبـر القطـار المحطـة الأولي التـي كـان مـن المفترض ، أن نهبط فيها ، وكلما شاهدنا (الكنتـرول) وهـو المـنظم للقطار تجدنا نزحف الي الأمام ، واذا أتى من الأمـام تجـدنا نزحـف للخلف ، والأمر الجيد عدم وجـود حقائـب ، فهـذا قـد سـهل مـن حركتنا ، ولكن أكثر من (خمسة عشرة) يوما» بلا نوم كان شـيئا كثيـرا علي الطاقة البشرية .

بعد ساعتان توقف القطار ، وبدأ الركاب يهبطون جميعا ، فنزلنا ننظر الأمر أنها نهاية الخط ، وتصاريف القـدر ؛ لقـد اخترنـا القطـار

الخطأ!! ، مدينة (ليون ) وكانت الساعة قد قاربت السادسة ، وهذا آخر قطار كما قالوا لنا في المحطة ، فخرجنا نبحث عن باص والأمطار تسقط بكثافة ، والليل يخيم والناس تعدو نحو منازلها ، والبرد يزداد ، فعدنا نحو المحطة ، فوجدنا الشرطة تبعد المشردين من النوم بجوارها ، فأخترنا مظلة الباصات ونحن نرتدي ملابس خفيفة لا تكاد تستر أجسادنا ، وجميعنا يشعر بالبرد الذي يأكل في عظامنا.

ما أطول الليل في باريس !! وما أقسى شتاءه !! ، أكلنا بيتزا لم نتذوق لها طعم وتبرزنا في الشوارع ، وعدنا جلسنا علي المقعد ، ونحن نرتجف من البرد حتي الصباح ، والأمطار تهطل وكأننا نتراقص في حانة ليلية .

حتي أقبل الصباح فدخلنا محطة القطار نندس في مقاعدها ، وننام للحظة فتوقظنا حركة الناس ، كان أول قطار متحرك لباريس الساعة (الرابعة) ظهرا ، فجلسنا نفكر فهو قطار مباشر ، والتزكرة للفرد أربعة وأربعين يورو ، وكنا عازمين علي الوصول لباريس فأشترينا التذاكر مرغمين ، وجلسنا ، ووقفنا ، وخرجنا حتي نهدر زمن الإنتظار ، والشرطة تتقاطر حولنا ، ولكننا وصلنا الي مرحلة الأمان ، قابلنا أحد السودانيين وتحدثنا معه فعاتبنا بان هنالك

(فخاخات) وهي عناوين وهميه ، يستعملها المهاجرين للحركة وسعرها (عشرة يورو) كان يمكنكم شراء ثلاثة عناوين لو قبضتكم الشرطة تدون عليها المخالفات ، نحن لازال عمرنا في هذا البلد يومين فكيف نعلم يا صديقي ؟! ، والانسان يشتري راحته. تحرك القطار الساعة (الرابعة) ووصلنا مدينة باريس (العاشرة) لا أدري لماذا ، ولكن هنالك عطل ما .

اتصلت بالإخوة حتي يحددوا لنا مكان تجمعات المهاجرين السودانيين ، وكان من ضمنهم الصديق (حسن فرنسا) أجتهد معنا ونحن نتأرجح بين الخطأ والصواب في الصعود للمتروهات حتي توقف المترو الساعة الثانية عشر ليلا» ، وخرجنا الى أحد محطات الباصات ، والأمطار تهطل ، والليل يخيم ، ولم نجد شيئا غير البرد والمطر ، ونحن ثلاثتنا عبثت بنا الحياة من مرارة الي حنظل ، ولكن ما أصعب ان تكون تائها« بين حلم لم يكتمل ، وواقعا» لا يحتمل .

وجدنا المعسكر الذين حسبناه في عقولنا شيئا ضخما يمتلئ بوسائل الراحة والطمأنينة ، شيئا« آخر مجموعة ضخمة من المشردين يصطفون في أحدى شوارع باريس ، ويحتلون بقعة ضخمة ، تفوح رائحة قذارتها تزكم الأنوف ، وهم طريحي الأرض تحت كبري منطقة (جوريس) بلا أغطية ، تنهشهم الرطوبة ،

ويتساقط عليهم المطر ، ويتقلبون من شدة الجوع ، وتقتلهم نظرة المجتمع ، إذ ينظرلهم الناس من شرفات المنازل الفرنسية ، والسيارات المرورية ، ليتكرموا عليهم بما تجود به رحمتهم ، وينتظرون الفتات أملا» ، في تحقيق أوراق تبقيك في خانة إنسان ، وأنت أقل مرتبة من الحيوان !! .

وقفنا ثلاثتنا ننظرهم والبرد يجعلنا نرقص أمامهم ، وهم في عز نومهم يتقلبون ، ورغم ذلك تصطادهم الأيادي الغادرة من الجنسيات الآخري بسرقة مقتنياتهم من الجوالات وهم نائمون إرهاقا وأحلاما ضائعة .

كان دليلنا في تلك اللحظات سوداني (يوسف) مقيم يبحث عن فرصة أخري لسكن آخر ، عندما شعر بأن البرد في إزدياد أدخلنا الي (أنفاق المترو) لنكتسب الدفئ ، ونعود بعد إشراق الصباح جياعا مع هؤلاء الجوعى وتائهين ، إنها فرنسا إخوتي!!.

قضينا في هذا المعسكر (اثنان وعشرون) يوما« كلما وضعنا رأسنا لننام نشعر بالأرض تدور ، وغثيان البحر يعاودنا ، وعندما تسأل عن هذا الدوار الذي يصيب رأسك يقولون لك انه شئ عادي جراء الرحلة البحرية ، فنرجع ونحاول النوم لكن هيهات!.

وكل يوم يمر ننتظر المنظمات تجود علينا وتحرسنا الشرطة

الفرنسية من بعيد ، وندخل في عراك مع الإخوة الأفغان بسبب توزيع المأكولات والمشروبات ، وقد يصاب واحد أواثنان ، وأعظم

معركة شاهدتها في (جوريس) كانت قبل يومين من توزيعنا الي الفنادق هي معركة (الجسر) التي أصيب فيها خمسة من الأفغان ، واثنان من السودانيين ، التي كانت تحكي تاريخا» لأمة فر شبابها خوفا من الطغاة ، ولم يثبت في تلك المعركة من السودانيين الا قلة ، وكان الأفغان علي قلب رجل واحد ، ورغم ذلك فالقلة التي ثبتت من السودانيبن لا يتجاوزون (الستين) مهاجرا« ارهبت الأفغان ، اما بقية السودانيين فقد فروا بعيدا ينتظرون نتيجة المعركة ، والشرطة الفرنسية أغلقت الشوارع حولنا وهي ايضا تنتظر ولا تتدخل ، حتي هدأ الأمر وعادوا جميعا كل له حدود ، أصبت انا بصخرة في البطن ، ولكني كنت فرحا» ، فاصدقائي كانوا صامدين جواري لم يفروا ، وهذا دليل علي حسن إختياري!!

وكانت المعركة بسبب توزيع الطعام ، وحصل الصدام في فتات من الخبز ، وتشابكت الألسن للتشابك بالأيادي ، والحق يقال هو أسلوب الأفغان والهمجية التي يتعاملون بها كانت هي سبب الإشكال ، وحصل صدام مع أحد السودانين واصبحت معركة بين الكر والفر ، وطوقت الشرطة الشارع وهي تشاهد فقط ! سبع

ساعات من العراك والإلتحام ، هرب من هرب ، وثبت مـن ثبـت ،،
وكان هنالك صفوة من الإخـوة السـودانيين لم يتـاخروا قيـد أنملـة ،
حتي أنتهي الصراع ، وعادت المياه الي مجاريها .

## (٩)

بلغ عدد المهاجرين أكثر من (ألف ومئتي) مهاجر، كانت هنالك خيم صغيرة توزعها بعض المنظمات والأولوية للأسر وكبار السن، قبعنا في هذه المنطقة (جوريس ) يوميا« نستقبل عددا« كبيرا» من القادمين عبر البحر من مصر، وليبيا، ودول أوروبا، أما رغبة« في فرنسا، أو رفضا» لطلبات لجؤهم في الدول الأوربية الأخري، أو اختيار فرنسا لسرعة الإجراءات وسهولة اللغة الفرنسية، وسهولة الأعمال الثانوية، وتقديم خدمات أفضل للاجئين أو المهاجرين.

مر على وجودنا(اثنان وعشرون) يوما» في هذا المعسكر.

صباح هذا اليوم ونحن نائمون استيقظنا علي صوت سيارات ضخمة، والجميع يتقافز ليرى، وكان جليا« أنه يوم التوزيع (او كما يسميه السودانيين (الرفع) كانت الشرطة تحيط بالمعسكر إحاطة السوار بالمعصم، والذين يخرجون لقضاء حوائجهم يمنعون من الدخول ويكونوا بذلك فقدوا حقهم في التوزيع .

شاهدنا الباصات تحضر بكثافة، والجميع يطلب منهم الجلوس، والمهاجرين يخافون من التوزيعات الخارجية،

ويفضلون التوزيع داخل باريس كما هنالك مهاجرين لديهم سكن ، ولكن يفضلون الفنادق نسبة لتوزيع الشيكات الخاصة بالمأكولات ، فتجعلك تأكل ما تفضله ، والاسوء الذين يكون لديهم مسكن ومسكنين وهم كثر ، وهؤلاء هم الأسوء لأنهم ياخذون من حقوق إخوانهم ، وأغلب المهاجرين دائما يدخلهم الهلع ويتملكهم الخوف ، لذلك تجدهم متهافتين في الإزدحام ، حتي أن البوليس يستعمل (الغاز المسيل للدموع) لتهديدهم بالإنضباط ، والالتزام بالقوانين ، كان توزيعنا في الأواخر ، واستقبلونا في مستشفي مغلقة ، وبعد اسبوع انتقلنا الي سكن جماعي يقال له (فويي) ثلاثة في غرفة أو اربعة وبداءنا اجراءات ، ولا يزال منامنا تتملكه الهواجس والهلاويس ، حتي أتصل بي صديقي في القاهرة (محمد عزالدين)فقد حاول اللحاق بنا ، وكان في السفينة التي تلتنا وكانت هذه آخر مراسلاته لي :

(بعد صراع شديد ، وصبر طويل في القاهرة ، والخسائر المتوالية، قررت الهجرة رغم حبي لبلادي ؛ قررت حزم أمتعتي ، والسفر عن طريق البحر لأوروبا ، وأعلم تماما أنه الخيار الصعب .

أسافر لأبحث عن حياة جديدة ، حتي أحقق طموحي ، فكل محاولاتي باءت بالفشل ، التجارة التي كنت أمني النفس فيها

بالأرباح الوفيرة أصبحت خسارتها تزداد بسبب الدولار المتصاعد في كل ساعة في بلادي والغلاء الطاحن ، وهيمنة التجار ، وحتي اختار السفر المأمون عن طريق الطيران احتاج جواز غير جوازي السوداني الذي اصبح يحمله كل أجنبي وافد للبلاد ، فلا توجد دولة يمكنك السفر اليها إلا عبر فيزا ، واجراءات عقيمة وبعد كل ذلك يكون الرفض مؤكدا والقبول نادرا» .

وأخذت الفكرة مني كل مأخذ ، وبدأت التحرك والتدبير ، بصورة سرية فأنا موقن برفض جميع من لهم بي صلة واستنكارهم لمخاطرها ، ويضعون لك الحواجز المقيدة ، ولكني قررت وحددت وجهتي ، ونفسي تناجي:

(الموت واحد،، والرب واحد) .

وكانت وجهتي ميدان (العتبة) مكان تجمع السودانيين ، فهو مشهور بسماسرة السفر ، سبعة أيام قضيتها في التحري والتقصي والمعرفة حتي وجدت ضآلتي ، سمسار معروف ، وبدأت مباشرة في الاتفاق معه علي (٢٢٠٠) دولار تدفع بعد وصولي لإيطاليا ، وسلمت المبلغ لأحد الأخوة ، تكون أمانة بطرفه ، لحين وصولي ، ومن ثم أتصل عليه تلفونيا مبشرا ، وهو بدوره التاجر المستأمن يسلم الامانة ، للسماسرة تنفيذا للإتفاق .

كان كل شئ يسير علي حسب ما خططت له ، وعدت للشقة ، وانا أحمل الأماني الطيبات ، والمستقبل الذي أمني به نفسي ، وقبل أن أرتاح ، أتصل بي السمسار ، هنالك باخرة مبحرة ، لو جاهز اتحرك علي اسكندرية ، كان كل شئ سريعا ، وكنت وحدي ، وهذا ما كان يخيفني ، وانا أحزم امتعتي وأفكر ، هل أخطر بعضا من أهلي؟، وكان عقلي يقول لي :

لا لا لن يقبلوا ، من الأفضل أن افاجأهم ، بعد وصولي ايطاليا اخبرهم ، وهذا ما اهتديت اليه ، لحظات وكنت في داخل القطار المتحرك لاسكندرية .

كان الهدوء يسود بالقطار ، والتفكير يمزقني ، هل هذا هو الإختيار الصواب ؟ كان يجب أن يكون معي بعض الاصدقاء ، نزلت من القطار ، اتصلت علي اخي الأصغر مباشرة ، وبلا مقدمات شرحت له الوضع ولم أعطه فرصة للمناقشة ، فقد قضي الأمر بالنسبة لي ، رغم رفض أخي للفكرة ، وشعرت بنبرة صوته الحزينة وحاول بقدر ما يملك ان يثنيني عن قراري ولكن هيهات !!، لقد حسمت أمري وأوصيته بديوني جميعا طالبا ومطلوب ، وأن يطلب من أسرتي العفو والعافية ، واذا وفقني الله فلن أقصر مع أسرتي ، والحياة ما هي الا مغامرة ، والأمر بمشيئة من عند الله ، وشعرت بحشرجه صوته ،

ثم صوت بكائه ، وقبل أن ينطق بكلمة أخرى ليثنيني ، انقطع الاتصال ، وكنت أعلم أن رصيدي لايكفي لأكثر من سبع دقائق وهي كافية لشرح ما أود شرحه ، حاول عدة مرات الاتصال و لم أرد .

حتي اتصل بي وكيل السمسار المكلف بإيصالي للسفينة المبحرة ووصفت له مكاني ، وشكلي ، وما هي سوي دقائق وكنا بنقطة اللقاء في محطة (سيدي جابر) البوابة التي تفتح علي مدينة سموحة ، كان مصري الجنسية ، يبدو من شكله ملامح الصعايدة ، ويقود (حافلة) كما نسميها نحن في السودان وهم يطلقون عليه (نصف النقل) ، تعرف علي بسرعة ، وركبنا سويا وانطلقت السيارة ، وانطلق معها تفكيري مرة اخري ، لا أدري الي أين يسير بي هو ولا الحياة ؟ ولكنه مشوار طويل ، وكانت نصف النقل خالية لا يوجد الا أنا وهو ، شعرت بالخوف ، فهنالك تجار يتاجرون بالأعضاء البشرية ، ولكني طردت هذه الفكرة سريعا» !...

ولكن استبعدت هذا الأمر ، ساعة والسيارة النصف نقل وهي تخترق الأسفلت ، بدون توقف وانا أشاهد المناطق الخلفية لمدينة الاسكندرية ، والملاحات ، وكأننا نتوجه ، لمطار برج العرب ، ولكنه إنحرف ، واصبحت السيارة تخرج من شارع لآخر ، حتي وصلنا لمباني مهدمة ، تنسمت لفحة من دعاش البحر ، وشممت

رائحة المياه فاستبشرت بقرب الشاطئ ، وطلب مني إنـزال رأسـي ، وفعلت ، نزل وفتح الباب وطلب منـي بسـرعة وبهـدوء ان أخـرج ، وأدخل غرفة قديمة وخرجت اعدو بسرعة ودخلت الغرفـة الخاليـة من الشبابيك والأبواب ، وعندما وصلت اليهـا وجـدت ، مجموعـة من الشباب يقبعون في داخل الغرفة يجلسون ارضا في صمت ، نهرني بحزم: إجلس في الأرض إجلس في الأرض ، وجلست ثـم سـلمت علي الجالسين ، فردوا وكانوا خائفين مفزوعين .

حضر احد المصريين ، وطلب منا عـدم التحـرك ، بعـد سـاعة سيبدأون نقلنا لمركب ، علينا عـدم احـداث ضوضـاء ، او تحـرك ، كانت الشمس بـدأت تغـرب ، والليـل بـدأ يحـل ، جلسـت بهـدوء وتمعنت في الجالسين معي كـانوا اكثـر مـن (ثلاثـين) ، فـيهم جميـع الجنسـيات ، ولكـن السـودانيين فـيهم خمسـة او سـتة ، وذلـك مـن حـديثهم الخافـت ، وحمـدت الله اني أخطـرت أخـي ، وتـذكرت ان الموبايل كان يجب ان اجعله صامت حتي لا يخلق ضوضاء ففتحـه بسرعة ، ووجدت الشبكة غير متوفرة ، فعرفت أننا بعيدون .

انقضت الساعة وحضروا أربعة مصريين معهم الذي حضر الينـا في أول الأمر ، وطلبوا منـا الاسـتعداد ، كانـت الشـمس قـد غربـت تماما، وبدأنا التحـرك وهـم حولنـا ،وتحركنـا بخطـى حثيثـة تجـاه

البحـر، وكـانوا يعتمـدون عـلي عيـون مـن اخـوانهم المصـريين ، يتحسسون الطريق وكان الظالم حالكا ، حتي وصلنا تل عالي ، توقفنا لبرهة حتي تأتي الإشارة علي حسب حديث المصري الذي يسير بجواري ، وكـان المصـريون يرتـدون رداء قصـير وفنيلـة جمـيعهم ، بدأت أنفاسي في تصاعد ، وبدأت أحس بالإرهاق ، وطلبوا منا جميعا تجهيز أنفسنا فبقية المسافة سنقطعها عـدوا» ، لم نكـن نتحـدث كـل يحمل في نفسه ، الخوف من القبض ، عليه، والخوف مـن الإبحـار ، وماذا يخبئ لنا القدر ؟ حتي أتتنا صفارة الانطلاق ، ولم أشعر الا وأنا انطلـق مـع الجميـع ، وأتمعـن الأرض ، حتـي لا يصـيبني شـئ ، فالحجار البحرية ، قوية ، وحادة ، ومنـذ هبوطنـا مـن التلـة شـاهدنا البحر ، علي بعد ألف متر أو أكثر ، والرمال تغوص بها أرجلنا ونحـن نصارع للوصول ، وكانوا المصريين المرشدين أخف منـا وأسـرع ، وتجد لغتهم الضحلة كالسياط في ظهورنا ، احيانـا نسـمعها واحيانـا لا ، حتي ظهر لنا القارب ولمست أقدامنا المياه ، وكانت ارشاداتهم ، الركوب بسرعة وخفة ، فأي تأخير يعني القـبض علينـا وركبـت أنـا بعض سقوط كثيرين أثر الموج الذي دفعهم خلفي ، وبدا المصريين المرتدين الأردية ، يقفـزون بكـل مـن لم يسـتطيع الركـوب في ظهـر القـارب ، حتـي صـعدنا جميعـا ، واداروا ماكينـة القـارب بسـرعة وانطلقنا، وكنا نتزاحم فالقارب لا يسع الا لعشـرة ، وعنـد احصـاءنا

اتضح أننا أكثر من ثلاثين ، وشق القارب طريقة بعد خمس دقائق.

أوقف السائق القارب وطالبونا بالقروش المصرية التي نحملها، وبصورة حازمة ، لم يكن لدينا فرصة للرفض ، كان في محفظتي (مائة جنيه) مصرية اعطيتها له ، والجميع اخرج ما يملكه ،

وتحرك بنا القارب ربع ساعة حتي ظهر لنا قارب آخر أكبر من الذي كنا فيه ، وبنفس السرعة طالبونا الصعود علي القارب الآخر ، ونحن نستجيب ، فمصيرنا أصبح في يد أناس آخرين ، ونحمدالله أن حياتنا على الله ، اعتلينا علي ظهر القارب الآخر ، وتوجسنا خيفة أن يكون هذا هو المقصود ولكنهم قالوا ، انهم سيتحركون للسفينة التي يجب أن تنقلنا .

اطمأن قلبي ، وبدأت رحلة المسامرة ، مع الشباب الذين كانوا معنا في الغرفة ، وحصل بيننا تعارف سريع ، والقارب يشق طريقه للمجهول ، وكانوا يتواصلون مع بعض بالبوصلة ، والاتصال عبر أجهزة الثريا ، وكانت حقيبتي جواري ، او بالأصح أجلس عليها ، وصوت موتور القارب لا يجعلنا نسمع صوت بعضا» من المسامرة الا اذا صرخت ، تحركنا أكثر من ساعة وفعلا ظهرت لنا سفينة كبيرة، أكبر من القارب الثاني ، ومن شكلها ظننا ، اننا سنكون في قمة الراحة عليها ، وعندما تبينت معالمها ، إتضح أن عليها ركاب ،

المهم وصلنا اليها ، والتصق القارب الذي كنا نركب فيه ، مع السفينة، وتمعنا بالنظر وجوه الركاب السابقين ، وطلبوا منا القفز للسفينة الكبيرة ، وبدأنا واحدا تلو الآخر ، حتي صعدنا عن آخرنا ، وكانت ممتلئة عن آخرها عند صعودنا ومعظم ركابها من المصريين، وجلسنا في الارضية ، حتي سمعنا صوت القارب الذي اتى بنا بدأ يغادر ، وشاهدت ركاب السفينة من خلال الاضواء البسيطة ، والجميع صامت ، خائف مرعوب ، وهنالك اربعة او خمسة يقفون لينظموا الركاب ، ويمنعوهم من الوقوف ، والتحرك ، وطلبوا من الصف الامامي التحرك والدخول للثلاجة ، لم افهم قصدهم ماذا يقصدون بالثلاجة الا بعد أخبرني أحد الذين يجلسوني بقربي بان هذه سفن للصيد وبها ثلاجة لتخزين الأسماك ، وحتي تتزن المركب يجب ان تكون الثلاجة ممتلئة ، وهذا الطلب ليس اختياري ، وتنفيذه اذا لم يتم لن تتحرك المركب ، فقام جزء كبير ودخلو الي الثلاجة وهي غرفة كبيرة تحت المركب ، وطلبوا مني الدخول ، وتحركت ببطء وعندما وصلت الي بابها ، قال المسئول من الثلاجة ان العدد اكتمل ، واحمد الله أنه اكتمل وهذه هي تصاريف القدر .

عدت وجلست ، وكانت الساعة تتجاوز الثامنة أو التاسعة ليلا ، لقد فقدت الزمن منذ قررت السفر ، وبدأت أفكاري تعود كان يجب ان أتصل باسرتي فردا فردا ، واعافيهم فهذه الرحلة ، ليست

كما توقعت ، ولم اتعظ بما سرده لي صديقي (غالب) ، وقطع تفكيري الشباب الذين كانوا معنا منذ الغرفة المهجورة ، وتجاذبنا الحديث من جديد ، والحمدلله كانوا قمة الايمان ، وكانت الساعة تتحرك ببطء وكأن الزمن لا يسير ، والسفينة المزدحمة تسير بهدوء ، فسالت أحد المنظمين للركاب عن سبب سيرها ببطء فقال لي ان هنالك (خمسين) راكب سوف تحضرهم أحد الزوارق ، لتكملة العدد ، وكان هذا الأمر مفاجئ لي ، وللذين يستمعون لحديثه ، وعمت الفوضي رافضين لهذا الامر فالسفينة صغيرة ، والعدد الذي شاهدته لا يقل عن (٣٥٠) شخص غير الأطفال ، بدا الطاقم يقنعنا بان هذا الأمر مصدره (المعلم الكبير) والخمسين شخص لا يأخذون حيزكبير ، وهم حاليا قريبين جدا ، ولا يمكن ارجاعهم ليتعرضوا للقبض ، وقبلنا صاغرين ، كانت الساعة تجاوزت الثانية عشر ليلا ، وتوقف ، صوت موتور السفينة ، وشعرت باصطدام القارب الذي احضر (الخمسين) المذكورين ، وبداءوا يصعدون علي ظهر السفينة، وفوجئت كما تفاجأ جميع من في السفينة ان العدد كثير وتجاوز المائة، وعم الهرج والمرج ، بل كانوا (١٧٠) شخص ، واصبح الجلوس صعب ، والجميع يزجر ويصرخ ويئن ، لم يهتموا بنا بل انسحب القارب ، بسرعة ونحن في صراع شديد بين الجالس والواقف ، لم اتحمل هذا الوضع وبدأت أصرخ لاحد المنظمين ،

ولكن صوت الموتور بدا يطغي علي اصواتنا وتحركت السفينة علي عجل ، هل يمكننا الصبر لأيام علي هذا الوضع ؟؟ فالرحلة اقلها خمسة أيام ، ويمكن ان تكون عشرة ، كما ان القابعين في الثلاجة بداءوا يتضايقون من اهتزاز السفينة وحركتها الغريبة .

كان جميع من على متن السفينة لا يستطيع أن يتنفس ناهيك عمن يتحرك ، وحاولوا تصبيرنا بالكلمات الطيبة ، ويحفزونا علي التحمل، لم أهتم بهم ووجدت نفسي قريبا« من نهاية السفينة فأعتليت السياج ، وتمسكت به جيدا» ، وكان الوضع حقيقة صعبا« بكل المقاييس ، و من الأعلي وجدت نفسي أشاهد معظم الموجودين في السفينة الصغيرة ، وكانت بها كمية كبيرة من الأسر المصرية والأطفال ، رغم الليل الحالك ، والأعداد من الأجناس الآخري في وسطهم يشكلون شيئا غريبا» ، انفاس ، وزفرات ، وضحكات ، وصراعات ، بعيدا« عن العرق ، واللون ، ولكن من أجل مكان صغير يجلب الراحة ، وتستنشق نسمة هواء ، وتمنع الحركة ، ولا تسمع الا صوت هدير الماكينة ، التي تبعث اليك بعض الدفء ، وهي تكابد وتصارع التيار في شق الأمواج ، وتصرخ بأعلي صوتها من جراء الحمولة الزائدة .

كل ذلك يدور وحينها كنت في قمة الإرهاق ، إن العدد الذي أراه لهؤلاء اللاجئين يتجاوز الخمسمائة ، اذا احصينا الطاقم

والأطفـال ، كيـف يتحمـل هـؤلاء هـذه الرحلـة الطويلـة ؟؟ وانـا مسترسل في افكاري ، شعرت بان الذين يجلسون جـواري ، يكـادوا يكسرون أضلعي وانا جالس في زينة السفينة أو نهايتها ، وأحـاول ان أصبر واتحمل ، وقلت مناجيا» نفسي : الحمدلله أنني اخبـرت أخـي بسفري ، واذا قدر لي النجاة ، فلابد أن أذبح شكرا» لله.

كانت الساعة تتجاوز الثانية صباحا» ، عنـدها شـعرت بـألم في بطني وتذكرت انني لم أكل شيئا عـدا وجبـة الفطـور ، وقلـيلا« مـن التصبيرات، ومنيت النفس بأن يصـبح الصـباح ربمـا يكـون هنالـك وجبة في هذه السفينة الكئيبة ، الزمن يمر ، والجميع يحاول أن يجـد مكانا يتسع ليمد رجليه ، والصراخ بـدأ يتعـالي ليتفـوق عـلي صـوت الماكينة ، والكل ضائق لايمكن أن يصـبر النـاس عـلي هـذه الرحلـة الصـعبة المملـة ، والصـراخ يـزداد علـوا»، يبـدو أن مـن في داخـل الثلاجة، يحاولون الخروج والمسئولين من سلامة السفينة رفضـوا ؛ فلا يوجد مكان لهم علي ظهر السفينة ، وأذكـر انـه في اللحظـة التـي طلبوا مني الدخول اليها كانت رائحة كريهة تنبعث منها ، ويسـودها ظلام دامس مخيف ، كما أنها ضـيقة جـدا« والعـدد الـذي بـداخلها يتجاوز (المائة) كما قال المسئول عنها .

بدأت خيوط الليل ترحـل وبـدأ خيـوط النهـار تتسـرب رويـدا

رويدا، وعقارب الساعة تشير الي الرابعة صباحا ، والصراع يشتد أمام باب الثلاجة ، والجميع يحاول يجد له مكان يتمدد فيه ؛ فقد يبست الأرجل من طول الوقوف، وتسمرت الأيدي من التشبث بالسفينة، والمسئولين من التنظيم يتشابكون بالأيدي ، وبعضهم يحمل قطع خشبية في يده ، مانعا« الناس من الوقوف ، ولكن الجميع ثار ، والجميع وقف ، فقد تخدرت الأطراف ، والصراع اشتد علي آخره

إيقنت في تلك اللحظة انه الهلاك لا محالة ، ورايت في تلك اللحظة ان الكمية الموجودة داخل هذه السفينة اكثر من (الاربعمائة وخمسين) واذا اضفنا لهم القابعين في الثلاجة سيكون عددهم اكثر من( الخمسمائة وخمسين) شخصا».

وانا في المؤخرة شعرت بالمركب تتمايل بصورة مخيفة ، والجميع بدأ يصرخ بين مكبر، ومستغفر ، كانت الساعة تشير الي الخامسة والنصف اخرجت (الموبايل) تأكدت من الزمن بسرعة وأغلقته ، وادخلته في جيبي ، والجميع يصرخ والطاقم يحاول ان يهدئ الركاب ، ولكن هيهات ، فقد كان القابعين في الثلاجة بدأوا يصارعون للخروج ، والسفينة تتمايل ، وكلما مالت لجهة تحرك الركاب للجهة الأخري ، خوفا« من انقلاب السفينة ، وهذا ما حدث، لم أشعر سوي بانها تميل حتي بدأت المياه تصطدم بجسمي ،

واضواء وأشخاص ، لحظات لا استطيع ان أشرحها ، واصوات تعلو وتعلو،

كل شئ اصبح قاتما ، لقد انقلبت السفينة .

لقد كانت كل المؤشرات تشير الي حدوث ما أخشاه فقد إنقلبت السفينة ، وخفت ان يسقط شئ على راسي ؛ فغطست وانا أسبح محاولا« الإبتعاد ، ولكني كنت أصطدم بالأرجل والاقدام ، والرؤوس ، والكل يحاول الخروج من تحت هذه السفينة ، وقلت مناجيا» نفسي: - أحمدالله - مرة واخري أني كنت اجلس في نهاية السفينة ، فقذفتني المياه خارجا« بعد دقيقتين وانا تحت السفينة ، فسحبت نفسا« طويلا» ، وخرجت وطفا جسمي خارجا ، وازداد الصراخ ، وملأ صداه أركان البحر ، وكأن العالم كله صراخ في هذه اللحظة ، وعيوني تتجول في هذا المنظر الغريب الذي يتشابه مع أفلام الرعب التي نشاهدها ، وانامشدوها أراقب مايجري ، الا وشعرت باحد الأخوة يسحبني الي تحت المياه حاولت جاهدا التخلص منه ، كان ممسكا« بي بقوة ولعلها سكة الخوف ، حاولت إنتزاع يديه من ظهري ، ولكنها كانت شبيهة بآلة فغطست بعيدا» تحت المياه ، فأطلق قبضته ، وسبحت بعيدا عن الجميع الكل يصارع ، والكل يصرخ ، حتي وقفت علي بعد مائة متر ، وكانت

أنفاسي تكاد تتوقف ، وشاهدت الجميع يصارع للصمود ، حتي الذي لا يجيد السباحة يضرب المياه بيديه ، من أجل الحياة ، والسفينة بدأت ترحل ببطء نحو القاع وتختفي ، رغم ان هنالك اشخاص كانوا يتمسكون بأطرافها ، والذين يجيدون السباحة يدورون من حولها ، لايجاد شيئا يتمسكون به.

شعرت في تلك اللحظة بالوهن والضعف ، وحمدت الله مرات ، ومرات اني أجيد السباحة ، حتي هذه اللحظة ، وأنا علي قيد الحياة واشاهد الذين لا يجيدون السباحة ، يختفون في عمق المحيط بعد رحلة معاناة واجتهاد ، من أجل النجاة ، والذي تحاول تساعده سيغرقك معه ، واسوأ ما شاهدته في سبيل البقاء، ان الذين لديهم سترات يهاجمهم الركاب لانتزاعها منهم ، فلا يوجد خوف وخجل من الموت .

حينها شاهدت تلك المرأة السودانية ، التي عرفتها من ملامحها وتفاصيلها يهاجمها بعض الأشخاص ، لينزعوا منها السترة ، فيتصدى لهم شاب ، ويمنعهم ويسحبها بعيدا عنهم ، ويصلح لها السترة التي تمزق جزء منها .

وبدأ الاخوة المصريين في التكبير والتهليل ، وجزء آخر يبكي ويصرخ ، وحقيقة لم يكن هنالك أمل فقد جلت ببصري في كل

الاتجاهات ، ولم اشاهد شئ سوي الفضاء ، والماء المتسع فنطقت الشهادتين ، وايقنت أن الأجل قد حان ، وسألت الله أن يغفر لي ، واعدت النظر للجموع التي تسبح من حولي فوجدت افراد الطاقم بعيدين يسبحون علي ظهورهم ، وتزكرت ان سباحة الظهر تقلل المجهود ، فسبحت بظهري ، وكانت هي الأفضل ، ويصل الي سمعي أصوات الصراخ ، والتهليل ، وبين الفينة والأخرى أسمع صراخا«مميزا»مختلفا» بوتيرة ، يوحي بغرق شخص جديد ، فابتعد منهم لعلي اجد شيئا أتمسك به ، وكانت هنالك بعض الاخشاب في السفينة تمسك بها بعض الذين لا يجيدون السباحة ، والبعض الآخر يرتدي سترات النجاة وكلنا موزعين في دائرة ضخمة كلنا يخاف من الآخر ان يمسك به ، وكلما تمعنت فيمن حولي يخالجني الخوف ، فالعدد الذي صار موجودا« يمكنني أن أحصيه بعيني ، وعده على أصابع اليد.

أين كل هؤلاء الذين كانوا معنا في السفينة ؟؟؟ وحينها جال في خاطري دعاء سيدنا يونس عليه السلام وهو ببطن الحوت:(لاالله الا أنت،سبحانك أني كنت من الظالمين).

كانت السباحة سهلة نوعا« ما لكن الخوف ، والجوع والهلع ، وصراخ الأشخاص حولي، واختفاء شخص بين الفينة والفينة في

عمق المحيط كفيل بإدخال الرعب والخوف ، نقاتل بكل ما أوتينا من أجل البقاء ، تبلدت كل احاسيسنا ، حتي صرنا لا نعرف الوقت والزمن ، وكلما نشعر بالارهاق والتعب ، نتمسك بخيط الأمل .

لا ندري كم سبحنا في هذه المياه التي لايوجد لها نهاية ، ولا نعلم اي من الاسماك المفترسة التي من الممكن أن نكون وجبتها القادمة ؟، وعندما يراودنا هذا الاحساس تسري في جسدنا الرعشة ، أحساس غريب يحمل مجموعة مشاعر مختلطة ، الخوف والضعف، والأمل ، والترقب ، ويبقي هنالك أمل طالما هنالك رب يحميني ، ويبقي الاستغفار ، والدعوات الصادقة مربوطة بالتذلل للواحد القهار الأحد الصمد ، هي الملاذ والمرتضي .

لا ادري كم سبحنا ، وكم من السنوات الطوال قبعنا ، في هذا البحر الخضم ، ولكني شعرت بالجميع يصرخ ويهتف وكان هنالك شيئا بعيدا« يدنو انه قارب ، يظهر كبقعة او سراب ، ربما يكون مجرد شيئا يداعب عيوني من أثر الارهاق والتعب ، لا أنه قارب ، وبدأ الجميع يصرخ ويلوح ، حتي اصبحنا نشاهده عيانا بيانا ، يلوح في مرمي عيناي ، ولكنه فجاءة غير اتجاهه وغير مساره ، وبدأ يعود من حيث أتى ، فصار الجميع يصرخون ويبكون ، بحرقة ، حتي إختفي من الأفق ، وحدثت نفسي :

لابد أنه لم يشاهدنا ، أو خاف من الشرطة المصرية ، حتى لايتهم أنه من المهربين ، ففضل عدم اقحام نفسه في مشكلة ، لم يبقى لي شئ سوي انا أقول:( اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ) لمرات ومرات وأغمضت عيني ، مستسلما لمصيري المحتوم .

لقد توسطت الشمس كبد السماء ، وهذا يدل ان الساعة تجاوزت الثانية عشر ، أو انني أهذي ، حاولت أن أشغل نفسي بمن حولي واتابعهم لعل وعسي ان يظهر شيئا جديدا» ، ولكنهم اصبحوا قلة ، و- سبحان الله - ذاك هو الشاب الذي أنقذ المرأة السودانية ، يسبح جوارها لم ييأس ، وهي ترتدي السترة ومجموعة من المصريين ، يسبحون بالجانب الآخر ، وهنالك نسوة ثلاثة متمسكات ببقايا أخشاب السفينة ، وفي الجانب الآخر سودانيين ايضا يسبحون بعيدا« عن الجميع ، والكل متمسك بالحياة ، ولا أمل، في شئ يظهر ،كان الأخوة المصريين يكبرون ، ويهللون ، والسودانيين صامتين ، كل يعبد ويدعو ربه علي هواه وفطرته ، في تلك اللجظات العصيبة .

رقدت علي ظهري مواصلا السباحة متمسكا بعدم الابتعاد منهم، الا بقدر كافي ، يجعلني ، أشاهدهم ويشاهدوني ، حتي شعرت بصرخات من جديد ، وايقنت بغرق مجموعة تعبت من السباحة ،

ولكني تبينت صوت ماكينة ضخمة ، نعم أنه صوت ماكينـة! ، حتي أن جسمي بدأ يرتجف ، أنه قارب صـيد ضـخم ، وصـرخ الجميـع (الله اكبر ، الله اكبر الله اكبر) .

وبرزت وجوه أشخاص، كانت تقـف عـلي جوانـب القـارب لتقذف لنا الحبال ، وتدافع الجميع نحو القارب ، ولم أشـعر بنفسـي الا وانا اسقط داخل القارب ، وكنت محتاجا« بشدة أن أبكي ، بكـل ما أوتيت من قوة ، فرفضت دموعي أن تنزل، وكأن قلبي تحجـر مـن هول ما رأيت! .

فرفعت رأسي لأشاهد البقية الباقية ، وهم يصعدون الواحد تلـو الاخر ، ولم أجد فيهم الستة الذين كانوا معي في المخزن وفي الزورق، ولم اجد سوي ذلك الشاب الذي أنقذ الفتاة ، التي عرفتها بعـد ذلـك انها محامية تجاوز عمرها العقد الرابع ، والشاب الـذي انقـذها مـن منطقة (أمدرمان) ، وانا اتابع الجميع بعيوني ، ولا استطيع حراكا» .

تم انتشالنا من البحر في الساعة (١٢:٣٠) ظهرا ، سـبحنا سـبع ساعات متواصلة ، لم نعلم بالزمن ولو كنا نعلم لغرقنا جميعا ، وانقذتنا مراكب الصيادين، قالوا انهم أرسلوا ثلاثـة اشـارات انقـاذ للبحريـة المصرية ولم تستجيب .

تحركنا عائدين في اتجاه نقطة انطلاقنا ،ونحـن لا نـدري أنفـرح

بنجاتنا ، أم نحزن علي الذين ضاعت امانيهم أمامنا ، والتهمهم البحر ولكنها تبقي ارادة المولي ، فكان مصيرهم وسط الأمواج غرقى .

تم تسليمنا للبحرية المصرية مباشرة ، التي سلمتنا بدورها لقسم الرشيد بالاسكندرية .

كانت محصلتنا النهائية (١٥٤) ناجي من أكثر من (٥٠٠) شخص ، اربعة نساء ، من ضمنهم المحامية السودانية ، واثنان من الارتريات ، وصومالية ، و(١١٠) من الاخوة المصريين ، و(٢٦) شخصا من السودانيين ، (١٤) شخصا من الجنسيات الأخري.

وانا الآن (بسجن الرشيد) وجميع من حولي نيام ، يغطون في النوم ، بينما لايلامس النعاس جفوني ، والحقيقة تقال حتي الآن يبدو لي أن ما حدث لنا هو مجرد حلم ، أم هو حقيقة ؟؟؟لا ادري؟!.

وحتي المنظمات التي حضرت كان معها اطباء نفسيين للكشف علينا ، فهنالك دائما ، قوة تحمل لكل انسان ، ويبدوا اننا كنا علي حافة الإنهيار النفسي ، طالبت المنظمات بعدم عودة اللاجئين الناجيين ، ولكن هنالك قوانين مقيدة .

واخيرا« أحمد الله واشكره واتوب اليه ، وأحمد الله انني كنت

لوحدي ، فهذا السوداني الذي انقذ المحامية فقد خاله ، وابن خاله في هذه السفينة ، وهو ممدد بجواري ، يئن كما تئن الشاة المذبوحة .

اسأل الله للذين استشهدوا أن يتقبلهم الله من بحره الي جناته ...

واشكرك جزيلا» أخي (غالب ) للاصغاء لي صديقك

(محمد عزالدين ) ...

عندما أتممت قراءة الرسالة ، وعلمت أنها

تفاصيل لحادث السفينة التي غرقت في منطقة العريش علي الشواطئ المصريه ،قلت مناجيا«نفسي يا صديقي ، ونحن كنا قاب قوسين أو أدنى من الموت ،لولا لطف العلي القدير ،

ونسأل الله لشهدائها جنة عرضها السموات والارض ...

## (١٠)

لقد اقتنعنا بوجودنا في دولة (فرنسا)؛ لأن الخيارات فيها كثيرة ، وهي الدولة الوحيدة التي بإمكانها أن تقبل المهاجرين الذين وطأتهم جمرة البصمة (الدبلن) كما أنها الدولة المتسامح نظامها مع المهاجرين ، كما تفتح للجميع آفاق الصحة والتعليم من أوسع أبوابها ، وتذخر في رحابها بكل الجنسيات العربية ، والأفريقية واللاتينية ، والأسيوية والأوروبية أيضا ، وهي أقل عنصرية من دول أوربية أخري ، كما أن التنقل فيها سهلا» ، ولا يقف حائلا« أمامك الا لغتها الصعبة ، والتي كنا نظنها سهله ، وبطء النظام في حلول الإشكاليات ، ولكنها تبقي الخيار الأمثل للمهاجرين .

كان توزيعنا ممرحلا» في عدة أمكان بخصوص السكن وقدمنا ثلاثتنا طلبات لمكتب الهجرة ، وننتظر ببطء شديد أن ينتهي الاجراء من إزالة البصمة لندخل في مرحلة تقديم القضايا ، والقضايا تعني محكمة (الأوفبرا) مكتب حماية اللاجئين وعديمي الجنسية في فرنسا؟

أنشأ قانون (٢٥ تموز ١٩٥٢) في فرنسا المكتب الفرنسي

لحمايـة اللاجئـين وعـديمي الجنسـية Office français de Protection des Réfugiés et Apatrides. OFPRA، تحت وصـاية وزارة الخارجيـة. وكلـف بمهـام مـنح «وضـع لاجـئ statut de réfugié» و إصدار وثائق اللجوء وكل ما يتعلق باللجوء في فرنسا.

(الاوفبرا) أومحكمة (الاوفبرا) هو إختصار الكلمة وهي التـي تمنحك الأقامة ، وتوفيق الأوضاع ، وهذا ما يتمناه كـل مهـاجر ، في هذه الفتـرة وانـا انتظـر كتبـت قضـيتي حتـي تكـون جـاهزة واذكـر تفاصيلها جيدا وقد بدأت :

تحركت للمكتـب الصـباح كعـادتي كـل يـوم ، والـذي لم يكـن كالعادة في ذلك اليوم أن يصحبني طفـلي (محمـد) أبـن الرابعـة مـن العمر ؛وهو سعيدا بصحبة والده والذهاب معه للمكتب ؛وإستغلال اللاب التوب الموجود في المكتب .

وعنـدما وصـلنا وبمجـرد دخولنـا المكتـب قفـز الي الكرسـي وناداني طالبا« مني فتح اللاب توب ؛ ففيه بعض الألعاب التي أتركها لهمـا هـو وأختـه ، كلمـا سـنحت لهمـا فرصـة لزيـارة المكتـب ، فضحكت ، وفتحت المكتب وفتحت اللاب توب له مباشرة» حتـي أتفرغ لالتزاماتي التي جئت من أجلها .

في تلك اللحظة حضر أحد الاصدقاء ، الصديق (التجـاني زرقـة)

رجل بشوش طيب المعشر ، مهذب ، وبدأ يجاذبني أطراف الحديث شاكيا« من الأوضاع في السوق ، والكساد ، والتضخم والمسئوليات الجسام التي اصبحت علي عاتقه من مصاريف مدارس وجامعات وهلم جرا كما يقول : (الأمام ) وانا أتابع حديثه بعين وطفلي بالعين الأخري ، حتي لا يمس شئ يضر بالنظام في المكتب ، وأحمل جوالي في يدي التقط الرسائل التي أشعر أنها هامة وكان غطاء جوالي الخلفي مكسور رغم أنه حديث التصميم .

عند ما بدأت الساعة تقارب منتصف النهار في تلك اللحظة ، وبلا مقدمات دخل لمكتبي أربعة أشخاص ، وانا أتحدث مع زائري، ليتقدم واحدا» منهم ، أسمر طويل ، نحيف ، ليسألني بصورة مباشرة :

غالب طيفور؟؟

فأجبته بايماءة برأسي ، وحينها رفعت رأسي لأجد أن هنالك أربعة آخرين يقفون ، أثنان منهم علي جانبي الباب وأثنان خلفه مباشرة كأنهم يريدون القبض علي شبح ، فقال قائدهم :

لدي أمر تفتيش ، ومعي طلب حضور لشخصك بمكاتب الأمن والمخابرات الوطني ، وأستغرب ضيفي من الأمر ، وضحك بصور تهكمية في هذه اللحظة ، وكان له الحق في ضحكته ؛ فأمر التفتيش

كان ورقة قديمة بالية كأنهم أحضروها من سلة قمامة ، فظن زائري انهم اصدقاء يمزحون معي ، و لم يعطوه فرصة ليكمل ضحكته ، فشهروا في لحظة واحدة البطاقات التي يحمون بها أنفسهم ، وينكلون بها علي المواطنين أمام ناظريه حتي ظننت أنهم سيفقأون إحدي عينيه ، حينها قام من جلسته مذعورا» ، وشعرت أنه سيرفع لهم التمام العسكري !! .

المضحك في الأمر أن كل ما يجري في هذه الأثناء لم يعره أبني إهتماما ، يبدو ان اللعبة التي كان مشغولا« بها كانت أمتع من النظر لهولاء العصبة!! ،

كانت نظرة من قائدهم كفيلة بدخول الأربعة الباقين الي الغرفة الداخلية من المكتب ، وكأنهم يعرفون المكتب أكثر مني ، وبدءوا مباشرة في أخذ كل ما في المكتب من (أجهزة الكمبيوتر الموجودة قديما كان او جديدا ،وبعض الصناديق ،ومجموعة كبيرة من الورق الأبيض ، وأدوات للكتابة علي الحائط ، وأحبار جديدة) ليأخذونها مباشرة ويخرجون والقائد ومعه ثلاثة يقفون مكتوفي الأيدي ينظرون لي ولزائري ، حتي لم يبق في المكتب سوي (اللاب توب) وانا وصديقي ، والجوال الذي في يدي ، والذي في داخل ذاكرته مراسلات وعمل مشترك مع قوى المعارضة ، وصار جل همي

التخلص منها فعادة أضع كل شئ في (ذاكرة) خوفا من مثل هذا اليوم! .

في تلك اللحظات طلب مني قائدهم تسليمه (اللاب توب) الذي بحوزة إبني وهو مشغولا به ، لايهمه ما يحدث ولم يرفع رأسه حتى يرى خارج إطار شاشته ، وكانت فرصة مواتية لإرضاء ابني والتخلص من ذاكرة الجوال ، الذي كان بيدي ، وانا أتحدث مع إبني وأترجاه محاولا إقناعه بان هؤلاءالأخوة جاءوا لأخذ (اللاب توب) وصيانته ؛ حتى لا أبث الذعر في قلبه الصغير ، فيجب أن نغلقه ونضعه في هذه الحقيبة ، كما أن الجوال ايضا سأضعه ايضا في الحقيبة الأخري ايضا ، وهم مشغولون بمتابعة أبني كي يضع (اللاب توب) قمت بسحب قابس الكهرباء من اللا بتوب وابني متذمرا ويصرخ في وجههم :

(لكن اللعبة لم تنتهى).

اغتنمت السانحة وسحبت الذاكرة ، وانا أعلم أن هنالك (ياي)، يخرجها مباشرة ، و شعرت بأنها تخترق أصابعي بسرعة الضوء ، لتسقط داخل الحقيبة الفارغة التي تحتوي على بعض الأوراق والمستندات ، ودفتر الشيكات ، ورميتها داخل الشنطة من يدي ، وحملت الجوال في يدي ظنا« بأن المهمة قدإكتملت بنجاح.

وابني وضع لهم (اللاب توب) في الشنطة الخاصة الأخري ليأخذونه ، ووجهه الصغير غاضب وعابس إذلم يكمل اللعبة !.

وقبل أن نتقدم خطوة طلب مني القائد وضع الجوال في الشنطة الأخري واعطائها له (وكأنك يا أبوزيد ما غزيت ) والأدهى والأمر تحدث صديقي معي أمامهم بأنه جاء من المنزل لجلب خبز، وأن أهله وأطفاله الصغار ينتظرونه ، ومد يده مودعا لي ومتمنيا» لي العون الإلهي .

ولكنهم تدخلوا في الحديث بصورة قاطعة :

ستذهب معنا أنت ايضا فلدينا أوامر بإحضار كل من يكون مع غالب ، فقال برجاء وتوسل :

ولكن المنزل لا توجد به قطعة خبز ،ولدي أطفال صغار ينتظرونني فقالوا له :

( لا يوجد شخص مات من الجوع )

فخاطبت قائدهم بخصوص أبني فقلت له :

( لابد أن نذهب للمنزل لتوصيل أبني لوالدته ) وأوما برأسه موافقا» ، فوصفت له المنزل ، ونزلنا من المكتب متجهين للعربة الخاصة بترحلينا ، وكان النزول من الطابق الثاني للأسفل كأنه أياما

لا ، بل شهورا ، وعند وصولي للعربة وجدتها ثلاث عربات ، ولكنهم اختاروا لي انا وأبني وصديقي (نصف نقل) مفتوح من الخلفية، و فيه جميع ما أخذ من مكتبي ، اعتلي الضابط القيادة وبجواره صديقي وأبني في الكبينة الأمامية ، وانا وأربعة من عساكر الأمن بالخلف مع الأدوات المسلوبة من مكتبي .

وبدأت المسيرة لأشاهد السيارة التي تخص المتابعة وبها أربعة عساكر يرتدون زي عسكري خاص يعرف ( أبوطيرة) كما نسميه نحن ويحملون اسلحة حديثة ، واتخذت السيارة مسار كبري (شمبات) ، وهو طريق مغاير لطريق منزلي ، ولم يعر القائد حديثي اهتمام بخصوص أيصال ابني لوالدته!!

وسيارة المتابعة في الخلف ، شعرت ان الأمر أكثر من حديث إعلامي ضد النظام ،أو منشور ينادي بأسقاط النظام ، أو كتابة علي المواقع الإسفيرية ، كأنما جريمة قتل أرتكبها مجرم ، وأكثر ما كان يشغلني أبني الصغير وما يمكن أن يصيبه من رعب من هذه الأماكن، وتأثيره السيء على نفسياته ، وبدأت أتخيل تحريات أمنهم البغيض ، وقطع تخيلاتي توقف السيارة ، أمام بوابة أعرفها جيدا« أنها (موقف شندي )

( إدارة الأمن والمخابرات الوطني) ، معقل البطش والتنكيل

والتعذيب ، لتفتح له البوابات بسرعة وتدخل العربة لتقف امام أحد العمارات ، وانظر لموقف السيارات واقرأ اللافتات مكتوب عليها الأدارة السياسية ، وأخري الأدارة الفنية ، ولم يعطوني فرصة للتكملة.

طلبوا مني النزول والدخول لمكتب جوار الاستقبال الخارجي ، وأنا أدخل شاهدت سرير داخل المكتب ، وعرفت أنه سرير الضابط (المناوب) .

وفي هذه الاثناء شعرت بإبني يسألني بصورة بريئة وساذجة ، وعيونه مليئة بالدهشة :

أين يريدون اصدقائك الذهاب بنا؟؟ ، هل سيصلحون (اللابتوب) في هذا المكان؟؟.

لم استطيع أن أرد عليه ؛ فألالم كان يعتصر قلبي لمجئ إبني الصغير لهذا المكان البغيض ، وقلت في داخلي ياليتني يا أبني أعلم!!

فأدخلنا جميعا في مكتب أنا وأبني وصديقي وكلف أحد الجنود بحراستنا ، وسمعت بعضهم يهنئ القائد الذي أحضرنا ووجوهم مسرورة ، كان هنالك شئ لا أعلمه ، وهذا ما أقلقني .. قطع تفكيري حركة صديقي القابع في نهاية مكتب الإستقبال وهو يحرك يديه بصورة هستيرية فهمت أنه يستفسر مني الأمر ، وماذا فعلت ؟ فقلت

له بحديث خافت موضوع بسيط ، ولكنه ثار صارخا« قائلا« ( كيف ياغالب موضوع بسيط ، وإبنك الذي يبلغ اربعة سنوات ، رفضوا اطلاق سراحه ،وأتوا به معك، وربما يتحروا معه ايضا»؟! ) صرخ الحارس محذرا« بلغتهم العسكرية : (امنع الكلام ) احتضنت أبني ، وبدات أفكر في حديث صديقي اذا« هذا الأمر كبير حقا» ، لقد تم القبض علي عدة مرات ولكن هذه المرة تختلف عن سابقاتها ، في الطريقة والكيفية ، والكمية ، والتهانئ التي يتبادلها افراد الأمن ، انتابتني الهواجس والظنون ، ولكن عدت سريعا بالنظر للجندي وسألته عن الزمن ، وكانت الساعة قد تخطت الرابعة ، وابني لم يأكل شيئا ولا أنا ، سوي جرعات من المياه ، فطلبت منه أن ينادي علي الضابط المبتهج ، شعرت في تلك اللحظة ان الموت أهون لي من إهانتي أمام صغيري ، الذي يفخر بأبيه ، ويطمئن لجواره ، وبدأ الجندي يعلو صوته طالبا« مني الجلوس ، فأبت نفسي اطاعته ، فسمع الحديث الضابط الذي اظن انه كان قريبا» يتلذذ بمتعة الانتصار ليري الإنهزام في عيني ، فحضر مسرعا ، أحس ابني بالأمر فسألني ببساطة :

( بابا مالك ، حنتأخر في صيانة اللاب توب؟؟ ) جاوبته وكان الضابط قد حضر قلت له :

يا ولدي ،يبدو أننا سنتأخر .

فتدخل الضابط مخاطبا« شخصي ، ويبدو أنه أحس بما فعله من خروج من عرف الأخلاق العسكرية والإنسانية ، فأرشدني لتلفون في مكتب الإستقبال ، وقال لي:

( اولا في كلمتين دع أحدا من أهلك يأتي لياخذ الصغير )

وسيكون مقابل هذا العمل أن تقر بكل ما صدر منك ، فاجبت بهدوء :حاضر

رغم اني لا أعرف ما صدر مني ، انتهيت من الاتصال بأخي في عشرة كلمات وهي كالأتي :

( انا مقبوض في (موقف شندي) و معي ابني محمد تعال وصله لأمه ) .

في تلك اللحظة حضر اثنان وقادوا صديقي ( التجاني ) ولم أشاهده مرة أخري ، وجلست وجواري طفلي انتظر ، بين الاسئلة البريئة التي يطلقها إبني ، والتفكير في الإتهام الذي ينتظرني ، والذاكرة الملعونة التي تحمل كل اسرار مجموعات المعارضة، وتصاميم المنشورات ، والتخطيط للعمل الداخلي ، واسماء معارضين بكافة تفاصيلهم ، كما أنها تحوي القواعد السرية لشباب جامعيين

يشاركون معنا في العمل العام ، كل ذلك وانا أنظر لإبني بعين الشفقة، وهو يشاهد أباه يقاد مذلولا« مقهورا» .

بدأت تشير عقارب الساعة الي (السابعة مساء )وأبني في أحضاني ، لم يتذمر ولم يبكي كما يبكي الأطفال ؛ ولعله هول التجربة ورهبة المكان ، وذاك الحارس المتشدق الذي يحمل سلاحه بيد ، ويحمل سبحة يستغفر بها باليد الأخري ، وما أظن استغفاره إلا من فعله المجافي للانسانية ، في إعتقال طفل مع أبيه ، وعندما يعود للبيت يجد أطفاله في انتظاره ناشرا الفرحة بعودته .

وماهي الا لحظات ليدخل القائد الذي اعتقلني ومعه أخي سلم علينا حاول أن يستفسر عن الأمر ليمنعه القائد وصده من الحديث معي .

فيسحب الطفل وهو متشبث بيدي وطالبا« مني العودة معهم ، بعد طلب سحبه أخي بهدوء ، فقبلته وقلت له: ( أذهب يا صغيري مع عمك ، لماما ، أنا عندي موضوع بسيط وسأتي فورا» ولن اتأخر ) غمرني بنظرة ملؤها الحزن والخوف والترجي ،

ثم نظر للحارس الذي يحرسني بنظرة أخري طويلة ، وكأنه يعي أني لن أعود قريبا» ، وتمنيت أن تبتلعني الأرض في هذه اللحظات ، وأخذه أخي وخرج .

وجلست وحيداً أنتظر بعد أن اطمأن قلبي لعودة أبني ، فكأن الحياة دبت في أوصالي من جديد ، وبدأ الخوف يخرج منها ، فنحن علي حق وهم علي باطل . جاء أحد الضباط وأخذني للعمارة وعرفتها بمسماها (الإدارة الفنية) ، وصعدبي عبر السلالم حتى الطابق الخامس رغم مشاهدتي لمصعدها يعمل ؛ ولكنهم اختاروا لي المشقة ، ولكني فضلت الصعود بالسلام حتي أعد ذاكرتي، وأكون جاهز ذهنيا» للتحري ، وأجمع شتات أفكاري .

دخلنا لغرفة بلا مسمي علي بابها ، عندما دخلت شاهدت سرير علي يدي الشمال من الغرفة وجواره تربيزة المكتب الضخمة وكرسي وثير يجلس عليه شخص ، وكرسي مقابل للكرسي الوثير خالي ، وهو الخاص بي، وكراسي جلوس علي الحائط يجلس في ركنها شخصين ، فجلست قبل أن يطلبوا مني الجلوس ، في هذه اللحظة دخل القائد الذي احضرني ، فهبوا جميعهم وكلهم يخفون خراطيش سوداء قاتمة اللون لها بريق ، لم أقف ولم أهتم وايقنت الضرب آت آت فمن الأفضل أن اتلقاه وأنا جالس ، باغتني القائد بسؤال قائلا لي:

( أنت ضد النظام وعندك نشاطات؟؟ ونحن نراقبك ) لطالما كان والدنا (رحمه الله عليه) يحدثني عن هذا السؤال ، جهاز الأمن

دائما اذا جاءوا باي شخص يسألونه:

أنت ضد الحكومة ولك نشاطات؟؟ ، اذا نفيت تضرب وينكل بك حتي تعترف أنك ضدها ولك نشاطات ، فمن الأفضل تخطي هذه المرحلة ولم يكمل لي كيفية تخطيها ، ورفعت رأسي نحو الضابط وقلت له :

( لم تأتي بجديد ، انا ضد النظام منذ أن أستلمتم سدة الحكم وعندي نشاطات ، وأنا أمامكم أعترف بذلك ) كل من في غرفة بدأ ينظر لي بنظرة غريبة ودهشة شديدة،حتي قائدهم ، فجلسوا جميعا ، وكأنهم كانوا ينتظرون ردا« آخر ، وكأن الحكم أنهى مباراة قبل زمنها لسوء الاستاد ، فتعدلت الجلسة ، وخرج ثلاثة منهم علي الفور وكأنهم كانوا مستأجرين للبطش ، وخاب ظنهم .

وجلس القائد ومعه أحد الضباط برتبة أقل منه يسجل بياناتي ، منذ أن وضعتني أمي –بمشيئة رب العباد– وحتي جلوسي معهم ، لم أجد فرصة سوي دقائق معدودات للصلاة ، وهم يستهزءون في صلاة من يعارض الحكومة ، والتحري مستمر أشاهد خروج الشمس من خلال الشباك الذي خلف القائد .

لقد إنقضي اليوم بأكمله ولم أعرف ما هي التهمة التي أحضرت بسببها هذا ما قلته للقائد فضحك وقال لي :

( أنظر لهذا السرير كثيرا ما أكون قابعا لشهور لم اشاهد منزلي بسببكم أيها المرتزقة المأجورين ، ويرفع في يده كوب زجاج يهددني بتحطيمه فوق رأسي) لم اطأطئ له رأسي لعلمي بأنهم يحسون بنظرات الخوف فيستغلونها في التنكيل بالمناضلين البسيطين فيعيد الكوب الي مكانه ، ونعود للتحقيق عن شخصيتي ، وهم يخرجون ويدخلون ويتبادلون الاسئلة العقيمة المكررة ظنا« منهم بأني سوف أخطئ في الإجابات المتكررة وعندما استاءوا جاءوا بالشنطتين الأولي كانت خالية يبدو أن (اللاب توب) أدخلوه قسم الفحص، والثانية تحمل الجوال والأوراق وتلك (الذاكرة اللعينة) ، أفرغوها عن آخرها أمامي وبدوا يلتقطون شيئا شيئا» ، حينها زاد خفقان قلبي، وقلت في نفسي لو ظهرت يجب أن أخطفها وأحطمها سريعا حتي لو ضربوني سوف أتحمل ولكن أن يتضرر آخرين فهذا ما لا اقبله!! ، فاقتربت منهم برأسي فحذروني بالإبتعاد ، وسجلوا كل ماهو موجود وأنا شاحب الوجه أنظر خيفة حتي انتهوا ، فقام القائد بفتح الجوال، وحاول الدخول (للواتساب والفيس) فرفض الجهاز لعدم جود الذاكرة فسألني القائد:

أين الذاكرة ؟

فعرفت أنهم لم يجدوها ، وما أسعدني بهذا السؤال ، فقلت له :

( هذا الجهاز سقط وتعطل ولو تأخرتم قليلا« فكنتم لن تجدوني بسبب أني متحرك لمحل الصيانة والذاكرة فقدتها أثناء سقوطه )

كان ردا« مقنعا حتي أنا صدقته ، فعبث بـالجوال قرابـة النصـف ساعة فلم يجد شيئا» يفيده .

حتي دخل مهندس ادارتهم الفنية وهو حاملا« معه ورقة وحيـدة مكتوب عليها :

( لا تحاور مع السارقين والمفسدين ) وموقعة بتوقيـع (الجبهـة الوطنية العريضة) ، فهلل القائد القابع في كرسي التحـري (الله اكبـر، الله اكبر ) والتفت لي بصورة ملؤها السخرية وقال:

(وقعت وقعت يا بطل يا مناضل هذا هـو الخـيط الـذي نبحـث عنه)

حتي شككت أن عيوني قد قـرأت شـيئا» مغـايرا للمكتـوب ، لم اعطه فرصة لتكملة حديثه ، فقلت له :

( إن ما تتحدث عنه سـيكون الآن في شاشـة جوالـك ، واذا كـان هذا هو الخيط فقدموني لمحاكمة )

نهرني بصورة هيسترية وهو يحمل الكأسة في يده وقال :

( اصمت نوصلك للشرطة ليطلق سراحك بعد نصف في سـاعة

بالضمان ، لدينا هنا فندق شيدناه للإحتفال بامثالك ، كما أنك نسيت (الأسبري) الذي توزعه لكتاب الحوائط ، في شوارع العاصمة ، وهذا يدخل في مادة تقويض النظام وإثارة الحرب ضد الدولة ، والتحريض ، أقل مدة تحاكم بها عشرين سنة )

وصمت ينظر الي كان يجب ان أقفل باب المناكفة معه فقلت له:

( أثبت هذا الموضوع في المحكمة وانا اقبل حكمها ، وبما أني تاجر وهذه بضائع موجودة في كافة الاسواق )

قال : ( سيكون الاثبات باستضافتك معنا في الفندق حتي تنتهي اولا« الانتخابات ونقدمك بعد ذلك لمحاكمة لنضمن اذا لم تعاقبك المحكمة نكون قد عاقبناك علي تآمرك ضد النظام وحتي الآن لم نذكر لك الموضوع الذي إعتقلناك بسببه وهو حكمه الإعدام ولدينا اثباتاتنا .

كانت الساعة علي حد علمي تخطت (العاشرة صباحا) فقد سحبني اثنان ، واغلقوا عيناي بعصابة سوداء ، وتحركت بي السيارة دقيقتان او ثلاثة لأشعر بتوقفها حتي شعرت بأنهم قد نسوا شيئا» ، وطلبوا مني النزول ونزلت سحب مني أحد العساكر عصبة العين فوجدت نفسي داخل فسحة صغيرة لمبني وعلمت بعد ذلك أنها جزء من (موقف شندي)

دخلنا المبني وتوجه الضابط وهو يحمل شنطتي التـي بـداخلها (الذاكرة الملعونة) ليضعها في كاونتر آخر مكتب داخـل المبنـي ، في تلك اللحظة سمعتُ صوت أربعة اشـخاص يـؤذن كـل مـنهم عـلى لوحده فضحك الضابط وأشار لي :

( ستكون في ضـيافة (الـدواعش) ، سـوف يحتفلـون بـك ، لا تناقشهم في الدين ، حتي نضمن أنك ستكمل معنا التحقيق )

استفسرت عن حديثه برأسـي فأشـار لي بأصـبعه علامـة للـذبح ففهمـت! ، وعرفـت ان (موقـف شـندي) يمـتليء بالقتلـة داخلـه وخارجه، قام بتسليمي لهذا المكتب الذي خرج منـه أحـد العسـاكر ليقيـدني في كرسـي ثابـت جـوار المكتـب ، ويـاتوا باحـد الاخـوة (الارتريين) ليقيدوه بجواري في نفس الكرسي ، ويذهبون لصلاة .

ويا –سبحان الله - كرمنا الرحمن فأهاننا الانسـان!! ، انتهـوا مـن الصـلاة وحضـر وا ومعهـم جنـدي يرتـدي فنيلـة فريـق( الإتحـاد السعودي )لا انسي الفنيلة ولا أنساه هـو ، فقـد كـان يحمـل في يـده خرطـوش أسـود بـلا مقـدمات انهـار عـلي بـه ، وفي الضـربة ثانيـة ، وجلست عيني في عينه وقال لي : ( نزل عينك أتريد تخويفي ) قلت له :

( والله العظيم لو كانـت يـدي مفكوكـة مـن هـذا القيـد لحكـى

بقصتك كل الناس ، ولو لديك شجاعة فك هذه القيود واضربني )

خرج احد رجال الأمن صارخا« فيه ( ياعسكري قلنا ليك اضرب الأرتري وليس السوداني )

في تلك اللحظة فطن لما يقصده الضابط فانهال علي (الاريتري ) بالخرطوش الأسود حتي شعرت بانه قاتله ، (والارتري) يصرخ ويستنجد بي ، وكلما انطوي داخلي يسحبه حتي لا يمسني الخرطوش ، وشعرت بيده من محاولة (الارتري) الاحتماء بي وسحب يدي حتي بدأت نقاط الدماء تتدفق ويبدو ان اصابتي كانت في شريان المعصم ، فلما شاهد العسكري أوقف الضرب ونادي العساكر داخل المكتب للمساعدةفي اسعافي بقطعة ، وكانت اجراءات (الفيش) انتهت ، وقادني اثنان للمصعد المقابل لمكتب (الفيش) للصعود بي لزنزانة علي حد علمي ، فظهر احد الضباط صارخا« فيهم ما هذا الذي علي الارض مشيرا للدماء التي سكبت مني فقالوا :

( فقالوا دماء هذ المعتقل سيادتك )

فنهرهم امسحوا هذه (القذارة) حتي لا تنجس لنا مكاتبنا بدماء المرتزقة والمأجورين عملاء الخواجات ، فشعرت بنفسي أصرخ فيه بلا وعي:

( ما انت الا كلب من كلاب الحكومة ) قبل أن اتم جملتي

شعرت بشئ يهوي على رأسي ، ونجوم ساطعة تظهر أمامي وكأن الدنيا أبيضت ، وهذا آخر ما أتذكره قبل أن أصحو .

كان كل شئ بالنسبة لي مجرد كابوس عندما بدأت اصحو ، في بقعة مظلمة لا اري شيئا« ولا احس سوي بصداع منعني من الوقوف، فبدأت أتحسس رأسي وشعرت بكدمة في مؤخرته ، لم اهتم بها بقدر أهتمامي بمكان تواجدي في تلك اللحظة ، شعرت بالبلاط البارد الذي إتمدد عليه فاطمأنيت بأنهم لم يسقطوني في بئر ، وليس عليهم بمستبعد !!.

وبدأت اذني تسمع أنين خافت ، فسألت بصوت عالي:

من هناك ؟؟، وكان الرد من ذاك (الأرتري) فقد دنا مني وشعرت به بقربي يتمتم بكلمات لم أفهم منها سوي ( يارب) ويربت علي كتفي بطريقة ودودة وشفوقة ، ويحمد الله علي حياتي ، بدأت أتبين ملامحه من خلال ضوءرفيع عرفت أنه مدخل صغير يستعمله الجنود لإطعامنا ، في هذه اللحظة تساقطت كل الأمثال التي أعرفها (الجنس للجنس رحمة ) فالرحمة موجودة ما وجدت الأخلاق والتربية السليمة ، فقد وجدته نزع سترة يرتديها وغطاني بها ، وهو يرتجف من البرد ، وشعرت بالغرفة كأنها ثلاجة ، ولاتعرف من اين تأتيك البرودة ، أعطيته السترة بعد جدال ، لا اعرف ماذا يقول ولكنه

يطلب مني أن أرتديها ، تحدثنا بلغة الطيور ، فهو لايجيد العربيـة الا بعض الكلمات ، ولكنه يجيد الرحمة والأخلاق التي أنعـدمت ، مـن ابناء الوطن الذين ساندوا الطغيان وصنعوا له قواعد .

ثم أعطاني بعض الطعام فتناولته دون أعرف ماهو ، وخلـدت للنـوم وانا أستمع لأذان متفرق من عدة أشخاص بلا مكرفون ، وشريط ذاكـرتي يدور بلا توقف وهواجس عـن أبنـي، وحـال أسـرتي بعـدي و(الـذاكرة الملعونة) ، والأعتقال الذي لم أعرف اسبابه ، يدور في خلدي .

صحوت فجأة علي صوت الباب يفتح وهنالك من ينادي عـلي اسم (الأرتري) القابع جواري فتبينت الغرفة في تلك اللحظـة، وهـي في مساحة ثلاثة في أربعة متر بها سرير من الحديد بلا مرتبة وبها حمام جوار الباب صغير لا يتسـع الا لنصـف شـخص ، وتلفزيـون معلـق ومرايات بغرض التجسس أو الإرهاب ، فأشار لي الأرتري علي خبزة علي الارض ،وكأسة شاي باردة ، وخـرج وأغلـق البـاب خلفـه ، ولم اشاهده مرة اخري .

بدأت أتمعن الغرفة من خلال الضـوء الخافـت ، وذاك الخـط الأسود والتلفاز المعلق ، وتأكـدت ان الاشـياء التـي موجـودة بهـا ، جهزت للتدمير نفسيا ، فكل شي فيها مـوحش ومظلـم ، فحصـرت نفسي ما بين الصـلاة ،والحمـام ، وسـماع اذان (الـدواعش) الـذين

يقبعون في الغرفة المجاورة لغرفتي ، أنها حياة الفئران أعيشها بتفاصيلها ، وكلما حضر (المناوب) لوضع الطعام خطفت منه كلمة، استيقنت مِن شدة برودة المكان أني في (ثلاجات موقف شندي) ، في عمارة بها أكثر من مائة غرفة ، والأيام تتوالي بنفس النهج الرتيب حتي قضيت أكثر من عشرة ايام ، وصرت اتغطى بغطاء كان يستعمل ممسحة الأرض ، ودرجة البرودة ثابتة علي الصفر ، وكلما ارادوا عقابنا يقومون بتشغيل درجة الحرارة (٥) تحت صفر ، ويراقبوننا من خلال أجهزتهم بلذة ومتعة .

فتح المناوب الباب وطلب مني الحضور معه تحري ، وكانت فرصة لرؤية الخارج ، والهروب من هذا الجليد ، كل شئ في هذا المبني يشير الي انه مبني لعصابة كبيرة ، دخلنا مكتب في الطابق الارضي، وحضر نفس الضابط الذي اعتقلني ومعه نفس الفريق ، واجلسوني واغلقوا الباب ، ويدأوا نفس التحري السابق ، والتجديد بالاسئلة:

ماهي صلتك (بالجبهة الوطنية العريضة)؟ والاستاذ( علي محمود حسنين)

والكيان الإتحادي علي وجه الخصوص؟

والدعم الذي تتلقاه من أين؟ واسماءبعض اعضاء الجبهة الوطنية ، والقادة الذين تخطط معهم ، وهو السؤال الذي كان في بالي منذ يوم

الإعتقال الأول ، وكان ردي واضحا»وهو ايضا نفس الرد اولا:

(اعضاء الجبهة يعرفهم الجميع، وهو ليس بعمل سري ولا احتاج انا للتحدث عنهم ، فالاذاعات والمواقع جميعا» تعرفهم ، اما الحركة الإتحادية فأنا منها وانا بها منذ نعومة أظافري ، وتشربت مبادئها من والدي وتزخر بالشباب، ونعمل جميعا لتغيير هذا النظام ، أما موضوع الدعم ، فلو كان هنالك دعم ما قبعتم أنتم في السلطة حتي الآن ) لم يكثر حديثه فصار يساءل من اسماء امثال:

شباب( قرفنا، غاضبون) ، والحركات الشبابية الأخرى التي كنت متواصل معها ، وكانت ردودي دائما محصورة في أن هذه كيانات لا أشخاصَ يعملون ضد النظام أساعدهم بصورة سلمية بعيدا«عن العنف ، وهذا مطلب مشروع ، حفاظا» علي الوطن من الحروب والفتن وليس حفاظا« عليكم ، فباغتني الضابط مقاطعا بسؤال غريب ، ( لقد ذهبت أنت وعلي محمود حسنين لإدارة الاستخبارات المصرية ، وقامت إدارة الاستخبارات بتدريبك وتأهيلك ، ودخلت السودان بعد ذلك بطريقة حتي الأن لم نجد مستند يوضح كيف دخلت ؟؟).

وتذكرت في تلك اللحظة انني ذهبت لاستاذ (علي محمود) وخرجنا بموضوع خاص بعمل يخص الجبهة التي يتزعمها ، ومن ثم غادرت

لدبي باحثا» عن عمل ، فالبلاد ضربها السوس ويبدوا ان هنالك مندسين خلقوا لأنفسهم تقريرا« يرفعون به أسهمهم محذرين أجهزة المخابرات السودانية بأنه قد تكفلت المخابرات المصرية بتدريبي وتأهيلي للنيل من (نظام البشير) المسوس اصلا» ، وبعدها عدت من الامارات الى مصر، ودخلت السودان عبر (شلاتين) مما أكد لهم ، وتغير عملي من سوق (الشهداء) لسوق (أمدرمان) قطع لهم الشك .

وسرحت بمخيلتي في هذه الاثناء (لا أنكر باني طبعت مناشير ووزعتها ، وكتبت كثيرا من المقالات في المواقع الاكترونية ضد هذا النظام الفاسد الذي يعكس صورة حقيقية للديكتاتوريات الافريقية ، واجتمعت مع قادة كثر ، وفيهم وطنيين ، ومجموعات مختلفة من فصائل المعارضة ، وانا غارق في افكاري والضابط ينتظر الرد .

رغم احساسي بتراجع الضابط لشئ لم افهمه ربما لأنني شرحت له عن سفري لدبي والدلائل التي سقتها له حتي شعرت بانه تأكد بان المعلومة التي بطرفه غير صحيحة ، وتوضح تلفيق عملائهم الكاذبين ،والأفك والنفاق الذي يصاحبهم اما تلقيه لمعلومات جديدة ، ولكنهم دائما لا يعترفون باخطاءهم ، صرف نظره عني لبرهة وخرج علي الفور ، وبعدها خرج رهطه ولم يعودوا .

وبعد ما يقارب ساعتين ، جاءشخصان وطلبا مني الذهاب

معهم ، وخرجنا سويا» لباحة المبني ، لتدخل عربة حافلة مظلله ، وطلبوا مني الصعود عليها ، وعند صعودي أعطوني قطعة سوداء وطلبوا مني أن اضعها في عيني ، نفذت ما طلباه ، وتحركت السيارة لربع ساعة وكان الليل قد شارف توقفت العربة لاجد نفسي امام (سجن كوبر) العتيق ، وعملت لي اجراءات سريعة ، وصراخ العساكر بين ( اجلس تحت ،وتحرك سريعا) وهم يدفعونني حتي وجدت نفسي داخل زنزانة كبيرة بها أناس أكاد أجزم أنهم من أهل الكهف ، الذقون المتهدلة ، والأشكال الغريبة التي عبث بها الزمن ، حتي أنستهم الناس ، ونسوا انفسهم .

والحقيقة استقبلوني جميعا» وكان على رأسهم ( لؤي سالم) ضحية جهاز الأمن بورتسوان ، و(عامر السر) أحد قادة الدولة الاسلامية ( داعش ) و( وعالم ) .

واسماء كثر استقبلتهم أنا فيما بعد مثل الاخ (ناصر) اتذكره عندما كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل

فسمعنا صوت المفتاح يدور في القفل ، ويصدر صرير من فتح الباب ، ويتحرك جميع من في الزنزانة وينهضون بين الحيطة والترقب، وخاصة حينما يتجاوز الزمن (الحادية عشر ليلاً) ؛ ففي العادة يكون هنالك خياران ، أولهم :

هو إستقبال سجناء جدد ، وثانيهم :

يكون أخذ بعض المعتقلين للتحريات الليلية العنيفة ، التي يستعيذ منها الجميع ، وتكون الأنفاس تتسارع ، والقلوب تخفق بإصوات يكاد يسمعها السجان

وتنفسنا الصعداء ، وقلنا بصوت واحد : (الحمد لله) أنه زائر جديد ، تحمل ملامحه سحنة أبناء غرب السودان الأخيار ، ذو لون أسمر قاتم ، نحيف ، هادئ الحركة ، بسيط الملامح ، تظهر فيه ملامح النعمة .

دخل الي الزنزانة بهدوء ، وأختار ركن قصي ليفترش الارض ، فأسرعنا اليه بالكرم الذي ورثناه من ذوينا وأهلنا ، لنقدم له جرعات من ماء (الماسورة ) الوحيدة المتوفرة لدينا ، والتي تقع في حمام الزنزانة ، وهكذا إكتمل عدد المعتقلين في الزنزانة الي الرقم (١٧) ذلك العنبر الصامت المخيف في الركن الأخير من سجن كوبر المعروف ( بالزاوية ) ، وقبل ان يضع كوب الماء في فمه كان يسأل أين نحن ؟ وما هذا المكان ؟

هذه الاسئلة التي يسألها الجميع من الوهلة الأولي ، ونحمد لله ، ان هنالك دائما أخوة خبروا هذه الاسئلة فتكون ردودهم مطمئنة ، تعطيك بعض الأمل بان الأمر بسيط لا يعدو الا ساعات وينتهي ،

لهم الشكر( سناير كوبر) الذين يصنعون فينا الثبات والقوة .

وكالعادة تبدأ الاسئلة ، مالذي أتى بك هذا المكان ؟ ما هي الجريمة التي اقترفتها ؟ وتكون الردود علي حسب الشخصية ، والعقلية التي تسألها البعض يراوغ والأخر يناور ، والبعض يكذب ، وهنالك من يصمت ، خوفا من العملاء والمندسين داخل العنابر ، ولكن هذه الشخصية البسيطة ، كانت كتابا مفتوحا ، بدأ يسرد لنا التفاصيل يصراحة وهدوء .

الاسم: ( ناصر أدم ) من ابناء مدينة نيالا

سبب إعتقالي الهجرة الي إسرائيل لمدة ثلاث سنوات ونص ، وعدت الي جنوب السودان ومن ثم الي السودان ، وكان معي اربعة من اخواني تم إطلاق سراحهم من مطار الخرطوم مباشرة بعد ساعة من التحقيق ، وكان سؤالي له مباشر ، وسريع لماذا ؟ ماهو السبب الذي يجعلهم يطلقون سراح اخوتك ويعتقلونك أنت ؟ ربما كان الموضوع لبعض المعتقلين معروف ولكني كنت أجهله ، وحقيقة الامر لا يصدقه الا الذين عايشوه .

السبب ان الذين يغادرون إسرائيل تمنحهم دولة إسرائيل مبلغ (٣٥٠٠دولار) مساعدة من دولة اسرائيل لكل لاجئ دخل بلادها ، وعمل فيها ، هذا المبلغ معروف لجهاز الأمن السوداني ، ومنذ

وصولك مطار الخرطوم تستلمه منك إدارة الأمن ليصرف لك بالعملة المحلية ، ويكون مقابله أربعة جنيهات سودانية لكل دولار بمعني واضح ( هذه الدولارات التي أتيت بها سنقاسمها معك شئت أم أبيت ) ومن ثم يطلق سراحك فوراً ، وهذا القانون أصبح ينطبق علي أي عائد من دولة إسرائيل ، واذا اتيت بدون هذا المبلغ او قمت بتحويله يكون مصيرك السجن لمدة شهرين أقلها ، وتكون بسجن كوبر ، وفي بعض الحالات يجبر المهاجر بدفع المبلغ شريطة خروجه بعد الشهرين ، واذا دفع المبلغ قبل الشهرين ، يعاقب ايضا بتكملة فترة الشهرين ، بمعني ( في الحالتين انا الضايع ).

زميل زنزانتنا (ناصر) حول كل المبلغ الذي بحوزته لأهله ،و لم يكن يعرف هذه المعلومات .

والمعلومات التي يعرفها لا تتعدي بعض الكلمات والتوبيخ من جهاز الأمن ومن ثم يوهب حريته ، المعلومات التي ذكرها له القابعون من المناضلين في الزنزانة ، وهذه المعلومات من كثرة التردد في سجون النظام ، والحقائق التي قاموا بشرحها لناصر كانت مثل الصاعقة ، لقد قضي الأمر ، حتى وان تمت فترة السجن (ستدفع ستدفع) أنه حكم قرقوش .

ولا يزال ناصر يضحكني بسرده لي لحظة مقابلة ضابط الأمن ،

وهو يسأله عن الدولارات ، (وناصر) يحكي له أنه حولها من الجنوب لأهله ، وفي هذه اللحظة يضرب الضابط التربيزة بقوة ويصرخ في وجهه ويقول له : (أنت لا تعرف الي أين يتم تحويلها )

ويصرخ في العساكر الذين معه (حولوا هذا الشخص لسجن كوبر كي يعرف أين يحولوها، ونعرف أين الدولارات ) .

(قرقوش) ذلك الحاكم الظالم الذي إشتهر بالظلم والقهر ، والطغيان ، الذي لا يوجد مثيل له سوي هذا (البشير) وعصابته ، بعد وفاته ذهب الناس لابنه الذي أصبح ملكاً خلفاً لابيه ، وكانوا ينشدون إستعطافه ، ظناً منهم أن يكون افضل من أبيه الطاغية ، فقالوا له :أن أباك كان يأخذ من كل ميت ثلاثة جنيهات رسوم الأرض التي يدفن فيها ، فصمت ابن قرقوش برهة واصدر قراراً ، بان قيمة دفن الاموات ستكون خمسة جنيهات للأرض ، ونظام الدفن ( قذ) حتي لا ياخذ الميت حيزاً ، ويعطي مساحة للآخرين .

يومياً يقف (ناصر) في شباك البلاغات مطالباً بمقابلة الضابط المسئول عن قضيته ، ولا حياة لمن تنادي ، ويومين يصرخ ناصر بجملته المشهورة :

(هل يعقل أن يكون اليهود الكفرة أفضل من بني جلدتنا المسلمين ).

وفي تلك اللحظة جميع من في المعتقل يصرخون فيه:

( وهل عرفت أين تحول؟؟ ) فيعود ناصر بعد سماع صراخنا أدراجه خاضعا ذليلا .

أخي (ناصر) ، هؤلاء الذين يتقلدون الحكم في بلادنا متأسلمين، وليسوا بمسلمين ، خانوا الوطن ، وخانوا الارض والعرض ، وانتهكوا الحرمات ، (فالمسلم من سلم الناس من يده ولسانه )، ونحن لم نسلم من أياديهم وألسنتهم .

واخوة كثر ايضا مثل ( عماد عربي ) و (حسان احمد) وزينت ظهورهم سياط الجلاد ، وعبث بكرامتهم عصابة الطاغية ، فصاروا اشباح تنتظر الفرج من الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

قضيت قرابة (الثلاثة أشهر) ، في زنزانة الزاوية بسجن كوبر نأكل الفتات ، ونشرب ، ونتبرز داخل زنزانة ، ونمنع من الكلام بالصوت العالي . ويبدو أن بعض الجهات السياسية ، والحركة الإتحادية ، وأسرتي اثاروا أمر أعتقالي للرأى العام ، وأقيمت (وقفة احتجاجية) ؛ مما أربك حسابات جهاز الأمن.

وخرجت اخيرا« بفضل الله ولم اعرف حتي الأن ماهي التهمة التي دخلت بسببها ؟ واجبروني عن التنازل عن جميع ممتلكاتي التي أخذت من المكتب ، وطلبوا من الابتعاد عن العمل السياسي ، أو

العمل معنا بمرتب مثلك مثل كثير من اخوانك الذين يقودون الاحزاب والكيانات .

لم أرد واعتبرت ان مقالاتي ستكون هي ردي عليهم ، خرجت لأجد نفسي قد فقدت المكتب الذي اقتات منه بسبب الديون المتراكمة من جراء الإيجارات ، ولم يبق لي شئ لأضعه فيه ، بعدما نهبت ممتلكاتي الحكومة وعصابة الأمن ..

خرجت من (سجن كوبر) وأنا أردد مقطع الشاعرمختار دفع الله:

(أنا يابلد رغم المشاوير والخطى..

الدايرة في فلك الرتابة

شلت من عمري الفرح

وزعتوا للناس الغلابة)....

وستظل جذوة النضال متقدة فينا ...طالما نحن علي قيد الحياة .

ومن العجائب أن الأخ( ناصر) موجود بفرنسا وقد حضر أمامي وتقدم بطلب لمحكمة (الاوفبرا ) ومنح إقامة ، وكان لقائي به وليد صدفة .

## (١١)

وأنا جالس في مقهي بمنطقة (الأشابيل) كانت هنالك أحدى الفرنسيات الحسناوات التي تشاهد الدماء تجري في عروقها وهي تتحرك داخل المقهي وكأنها فراشة ، كلما اقتربت مني أشعر بقلبي يخفق ، ويبدو انها تنتظر شخصا» ما ، حتي جاء ذاك الفتي الأسمر التي تنطق ملامحه بتفاصيل الجنسية السودانية فتهب الفراشة الفرنسية للقاءه ، وتغمره بدفق من القبلات المحسنة حتي تجعل المقهي يكاد يصفق من الإعجاب ، ولحسن حظي أن الطاولة الفارغة الوحيدة طاولتي فيستأذنني ويجلس ، وبلا مقدمات أجد النقاش يدور بيننا فهو قادم من (ليون) وقطاره تبقى على قدومه ساعتين ، وإنداح يحكي لي عن قدومه لفرنسا بأريحيه :

لقد تغيرت ليبيا كثيرا» بعد مقتل (القذافي) ولم تعد البلد الآمنة التي يسهل مسايرة مواطنيها ، وأصبح الموت والدم ، والسلاح كالهواء في ارجاءها .

ثلاث سنوات أحاول أن أوفر شيئا يجعلني أعود لوطني بحصيلة تكفيني الفاقة والعوز ، ولكن بلا طائل سوي مايسد رمقي ،

وإرسال مصاريف لأسرتي تبعث في نفسهم الفرحة وتخبرهم بأني علي قيد الحياة ، ولكن ما نبذله من مجهود أكثر بكثير مما نأخذه كأجر ولكن كما يقول الليبين (الله غالب) وبهذه المناسبة أنا:

(الريح محمد وداعة) سوداني الجنسية من مدينة بحري : وأعمل طباخ واستمتع بمهنتي فهي تجعلني بجوار الطعام : في مدينة (طرابلس) منذ ثلاث سنوات واعمل في كفتريا ضخمة مسئول من المطبخ فيها ، وأجيد عمل الأطعمة السودانية التي تعشقها كل الجنسيات .

كان اليوم مرهقا« وصاحب الكفتريا توجه لإحضار الخبز من المخبز لمقابلة طلبات الزبائن وانا بين المطبخ والكاشير ، عندما حضر ذلك الليبي وبصحبته اثنان من السودانيين إخوتنا الذين تظهر من محياهم أنهم من غرب السودان الحبيب ، وطلب الليبي لهم طعام ، لا اذكره جيدا» لانشغالي بتحضير الطلبات أخري ، وانا في قمة إنشغالي سمعت ضجة شديدة بين الليبي وأحد السودانيين ، فخرجت لأسمع وجميع من الكفتريا صامت والليبي يصرخ في أحد السودانيين ويبدو أنه يرهبهم بعد أن أدوا له عمل ويريد أن يحتال عليهم فهذه أصبحت عادة لبعض الليبين ، واذا حاولت أن تأخذ حقك فستجد السلاح مشهرا« في وجهك ، ومن السهل أن يقتلك

بدم بارد ، لذلك يتنازل الجميع عن حقوقهم ، فلا يرهنون أرواحهم بدراهم معدودات ، ولكن ذلك السوداني كان شرسا» أكثر من اللازم ، او أنه حديث العهد بليبيا ولا يعلم قانونها ، لذلك ثار في وجه الليبي حتي بدأ يرتجف ، ولكن صديقه السوداني بدأ يهديء فيه، وكانوا يجلسون بالقرب من المطبخ ، ولم يهتموا حتي بوقوفي بجوارهم وهم يصرخون، ولم يتنبهوا لليبي وهو يدخل يده في جيبه ، وهم في خضم العراك والسوداني يمنع أخاه ويطالبه أن يوكل أمره لله، وهو في قمة ثورته ويرمق الليبي بنظرة حادة ، في تلك الحظة سحب الليبي يده من جيبه وكانت مفاجأة أنه يحمل مسدس ضخم ، ويوجهه للسوداني ، حتي صمت الجميع الا ذلك السوداني الذي قال له :

مثل هذا المسدس نعطيه لعبة لأطفالنا ، لقد استفز الليبي ، وسحب الليبي اجزاء المسدس بسرعة ووجهه نحو السوداني وتأكدت بانه سيطلق النار عليه فبعض الليبين صاروا جهلة بفن التعامل ، وكان علي أن أتصرف وانا اقف خلف الليبي مباشرة واحمل في يدي (طوة) التي بلا شعور وجدتني أضرب بها الليبي على رأسه ، واسمع صوت الطلقة تخرج من فوهة المسدس ، وهو يترنح ليسقط، وتلك الرصاصة التي مرت بجوار السودانيين ، كان لحظة مشحونة بالصمت وشعرت بالجميع داخل الكفتريا يهربون ،

والليبي سقوطا» وبجواره المسدس .

لقد وقع الخطأ ، ويا له من خطأ !!

تبين أن الليبي و-الحمدلله- يتنفس وسمعت صراخ السودانيين وهم يطلبون الهروب من الكفتريا ، وهم يسرعون الخطى ، وانطلقت خلفهم وانا أرمي (المريلة) ، واغادر ولا اعرف أين اذهب؟، ولحسن حظنا كان بالجوار (تاكسي) فقفزوا داخله ووجدت نفسي أقفز معهم ، وتحدث المتسبب في المشكلة مع صاحب التاكسي بوجهته ، لم اسمع رده وجسمي يرتجف ، وانطلق سائق التاكسي يسابق الريح وكأنه يعلم ماذا فعلنا ، كانت ساعة تمر بسرعة ، وانطلقت بخيالي سيطاردنا هذا الليبي ، ولن يدعنا وشأننا وربما ينتقم من أخوتنا ، لقد تركت معظم اشيائي هنالك ، وسيفقدوني اخوتي في السكن فنحن نسكن مجموعة ، والمشكلة أن يذهب اليهم الليبي لينتقم -الحمدلله - انني أحمل أكثر من( ألف دينار) حصيلة ما جنيته في هذه البلد ، أكثر من الأربع او الخمس ساعات ، وأنا سارح بخيالي ، حتي وصلنا لمدينة صغيرة ، وكانوا متواصلين مع شخص لا أعلمه ولكنه من حديثه معه بالهاتف اننا سنلتقيه ولم استطيع أن اسألهم فالسائق سيخطف اي كلمة وستكون العواقب وخيمة لو عرف الأمر ، وتوقف التاكسي بعد أن اجتزنا

اكثر من ثلاثة بوابات للشرطة العسكرية وكلما توقفنا ينظرون الينا ، ويكاد قلبي يسقط والحمدلله ان سائق التاكسي يبدو انه معروف لديهم ، حتي انتهرنا بصوت أجش انزلوا فهذا هو المكان المطلوب، نزلنا ثلاثتنا وأعطوه اجره بعد أن طالبهم بمبلغ كثير ولكن خوفا« من ان نكشف دفعوا له مجبرين ، وانطلق عائدا» من حيث أتى ، فقلت لهم :

أين تريدون الذهاب فقالوا لي سويا نحن نشكرك لقد انقذت حياتنا الحمدلله ، فقال لي صاحب المشكلة سنخرج من هذه المشكلة ولكننا نريدك ان تمثل بانك( أبكم) ، اما هذا الليبي فقد ظلمنا ولم يعطينا حقوقنا ونحن نعمل معه منذ ثلاثة شهور في مزرعته، فقلت لهم الحمدلله انكم بخير ولكن اين نحن والي اين نذهب ؟، نعم الي اين نذهب فقد اصبحت متورطا« معهم في قضية تكون عقوبتها الموت في هذا البلد الذي أصبح لا يعرف القانون ، ولو وجدنا هذا الليبي المعتوه سيقتلنا بدم باردة ، فقالا لي وبصوت واحد:

اصمت فالسيارة القادمة تتبع لليبي وستعرف ولكن من الأفضل أن تمثل انك (أبكم) في الوقت الحالي .

كان السيارة قد وصلت ، وهبط منها شخص يحمل معه سلاحه

وهو ينظر الينا ويصرخ لقد كان إتفاقنا شخصين ، فقال له صاحب المشكلة :

أنه أخ لنا وهو مريض (أبكم) وسوف يذهب معنا ليتعالج هنالك، ولا أدري بماذا يقصد بهناك هذه ؟! وسوف ندفع لك حقه ، فنظر لي نظرة مخيفة وقال لنا : اصعدوا بسرعة ، وصعدنا ، حاولت ان أعرف شيئا ولكنهم حذروني بعيونهم بأن الزم الصمت فلزمت الصمت حتي وصلنا لمنطقة صغيرة وتوقفت السيارة امام مبني يتشابه مع الورش الكبيرة ، وطلب من النزول تباعا ونحن واجمون ، وقادنا لداخل تلك الورش المشيدة من (الزنك وارضية من سيراميك) تظهر من بعيد وعندما دخلنا وجدنا امامنا كمية من الجنسيات تفترش الأرض وحقائبهم حولهم ، والجميع ينظر الينا في لحظة دخولنا ، ورفعنا لهم السلام وردوا بترحاب ، وظهر اثنان من الليبين وهم مدججين بالسلاح ، وروادني احساس بأن أصرخ قائلا:

ما هذا المكان ؟ وأين نحن ؟ ولكن اصمتني السلاح الذي يحملونه وكانهم يعدوا العدة لحرب وشيكة ، واقتربوا بسرعة منا وقال لهم الذي احضرنا بحزم.

وزعوهم مع اخوانهم ونظر الينا وقال :

كونوا مستعدين فربما نخرج اليوم ونظر لصاحب المشكلة

وقال:

جهز لي فلوس هذا الأبكم وهو يشير لي ، ونسبة لانه أبكم سوف تدفع (٥٠٠) دينار .

يالله انهم سيعبرون البحر ، انهم تجار البشر ، انها رحلات الموت ، انها الهجرة الغير شرعية ،- لاحول ولاقوة الا بالله - قضيت ثلاثين سنة من عمري في هدوء ، فجاء هذا اليوم ليجعلني مطارد ، وأبكم ومتهور !، وسوف أعبر البحر لايطاليا ، حتي الذين دافعت عنهم لا أعرفهم ولكنهم سودانيين وهذا عزائي ، وتلك الرحلة التي مات فيها معظم شباب افريقيا وارتميت في الأرض بلا حقائب بلا وداع لأهلي الذين ينتظرونني ، وشفتاي انطلقتا بالشهادة بلا شعور ، وحولي اصحاب المشكلة يطبطان علي بحنية ...

لقد وقعت في فخ والمشكلة إنني لا أستطيع ان أتحدث فالجميع أصبح يعلم بانني أبكم حتي الليبيين الموجودين وسطنا ، واذا حاولت رفض السفر معهم سيكون مصيري الموت ، فالجميع داخل المخزن كما يسمونه تنقطع علاقاتهم بالعالم حتي يدخلوا البحر ولا سبيل للعودة ، كان اصحاب المشكلة يجلسون بقربي ويهمسون لي بان أوروبا هي الحلم والأمل المنشود ، وسوف تحقق طموحاتك ، ولا تخاف فالموت واحد والرب واحد . وانا مجمل طموحاتي

وتفكيري هو وجبة هنية ، وإرسال بعض المصاريف لأهلي ، والمشكلة كلما حاولت الرد عليهم منعوني وكان تمثيل دور الأبكم فيه صعوبة من حديثهم عرفت اسمائهم فصاحب المشكلة يدعي (محمد مدثر) ، والثاني (أشرف ابراهيم) ، وهم من منطقة كبكابية بغرب السودان .

وتفكيري منصب في الخروج من هذا المخزن فقد صار امرا« مستحيلا» ، أعد السودانيين المتواجدين بالمخزن لنا وجبة ثلاثتنا وكنا جياع ، والمخزن او الورشة كانت معدة جيدا وممنوع الخروج او التحرك الا لصلاة المغرب والعشاء اي بعد هبوط الشمس وذلك؛ نوع من التأمين ، هذه الأوامر تليت منذ حضورنا والجميع مهتم بالتوضيح لي بالاشارات ، ومن شدة خوفي وهم يتحدثون بقربي واسمع حديثهم كانه آتي من مكان بعيد ، وكلما حضر الحراس الليبين شعرت بالقلق فهنالك ليبي اصبناه يبحث عنا ، وبدأت الشمس تختفي ويهبط الظلام والمفارش التي بالارضية ممتلئة بالمهاجرين وهم موزعين علي حسب بلدانهم ، وكثرة الحركة للصلاة وانا اتذكر الاحداث الغريبة حتي جاءنا الرجل الذي احضرنا ويدعي (النذير) وهو صعب المراس ، وقال :

لا تناموا ستكون هنالك رحلة اليوم وتقدم (محمد مدثر) نحوه

ومنحه (٥٠٠) دينار وقال له انه نصيب الأبكم وهو يشير لي ، وخرج وسمعنا صوت سيارته تتحرك ، وسحبتهم وانا احاول أن اثنيهم عن قرارهم ولكنهم كانوا قد حزموا أمرهم وانتهي الأمر ، طلبت منهم جوال فجوالي تركته في الكفتريا فاعطوني أحد الجوالات وصاحبه ينتظرني ، واتصلت علي أحد أخوتي عن طريق مكاتبات (الواتساب) ولم استطع أن أحكي له شيئا سوي أن هنالك موضوع مهم في العمل، أخبر والدتي بالدعوة لي والعفو عني ، وصاحب الجوال يقف في رأسي مستهزئا بان الأبكم يكتب بصورة سريعة واعدت له جواله واسمع صوت الرسائل تتوارد ويبدو أن أخي شعر بأني مقدم علي أمر خطير ، كانت الزمن يسير وكأنه يطير حتي ظننت انه يريد ان يغلق صفحتي من الحياة !

وسمعت السيارات تحضر وعرفت ان المنطقة المتواجدين بها تسمي (صبراطة ) وهي قريبة من البحر وطلبوا منا اخذ حقائبنا والصعود للسيارات.

كانت الساعة تشارف علي الثانية صباحا والمسافة التي قطعناها أقل من نصف ساعة لنشتم رائحة البحر وذلك الجرف العالي ، وكان كل شئ معدا» ، وهنالك مغلف كبير بدءوا في فتحه وظهرت انبوبة ضخمة والواح من الاخشاب العريضة ، وهبطنا من

المكـان المرتفـع للبحـر وحولنـا الليبيـين يحملـون الاسـلحة وفي لحظات بدأ شكل المغلف يكون قاربا« ووضعوا من فوقـه الألـواح الخشبية بطريقة هم يفهمونها ، وكأن الأمـر رحلـة صـيد ، وسـمعت الليبي (النذير ) يوجه السائق وهو أحد التشـاديين الصـغار في السـن طلبوا منا دفع القارب الذي تم تجهيـزه داخـل الميـاه ، وطلبـوا منـا الصـعود وكانـت هـذه أصـعب جلسـة جلستها في حيـاتيَ ، ونحـن نصطف داخل القارب ، جاء أخد الليبيين وصرخ فينا:

أين الثلاثة الذي جاءوا في النهاية فأشار الجميع الينا فقال :

هنالك بلاغ بأنكم ارتكبتم جريمة قبل حضـوركم ، يبـدوا انهـم كشفونا وانتهي الأمـر وطلـب منـا النـزول مـن القـارب ، يبـدوا أن الموت يطاردنا ، ولكن صوت (النذير) جاء من بعيد :

اتـركهم فـأنهم ذاهبـون في رحلـة تتسـاوي فيهـا نسـبة الحيـاة والموت ، كنت أرتجف فقال له :

يجب أن يعاقبوا لقد ضربوا ليبي وهربوا فقال له : اتركهم طالما أنه لم يمت ، فنزل ليبي من ظهر القارب بعد أشار لي لـو فشـلت هـذه الرحلة فسأقتص منكم ، وفي هذه اللحظات وزعوا المهام .

هـؤلاء تجـار البشـر منظمـين فقـد سَلموا البوصـلة أحـد

المهاجرين ، وحدد له المسار بدقة ، ونحن مترادفين في هذا القارب الذي يشابه الأنبوبة الضخمة كما سلموا مسئولية الوقود لأحد المهاجرين وتم اعطائه بطاريه ، وبينوا له كيف يضيئها ، لمعرفة الوقود وتغيير الوصلة للبراميل الإحتياطية ، ومنعهوه من الاضاءة بصورة مباشرة ؛ لان هنالك قراصنة في البحر .

كان العدد (١٢١) مهاجرا» داخل هذه الانبوبة ورفضت أن أجلس في الحافة ، وجلست في وسط القارب والليبيين يضربون بأيديهم مرة ومرة بما يحملون ، وكان الجميع مرعوبين ، وهنالك عدد كبير من النسوة ، والاطفال ، وكان الليل حالك وطلبوا من السائق الانطلاق ، وانطلقنا وكان يسير بجانبنا زورق يتبع لهم ، وكانت توجيهاتهم صارمة والمسئول من البوصلة بجوار السائق كانت الأنبوبة تتراقص في الماء وهذا السائق تم تدريبه قبل ساعات من الرحلة ، ونحن نحشر داخل بعض فهذه العددية كبيرة لم اترك سورة في القرآن الا وقرأتها ، وحولي صديقاي الجدد (محمد واشرف) وهم يطمئناني واشعر انهما يحتاجان أن يطمئنا أنفسهما.

كان البحر هادئ ، ونسمع صوت زورقهم يتابعنا من بعيد حتي إختفى ، وحقيقة قبل سويعات كنت داخل كفتريا - سبحان الله- ، أكثر من ساعتين الانبوبة تنطلق وبدأ الشفق ، وشعاع الضياء

يعلو مع تقاسيم الصباح ، والجميع بين متذمر وواجم ، ولا نسمع سوي صوت الموتور حينا يشق الصمت وهو يشق المياه بهدوء .

ثم ظهر قارب صيد متوسط ولكنه يتجه نحونا بسرعة حتي جاورنا وبرز منه ثلاثة شباب من العرب يقفون في حافته طالبونا بالتوقف وهم يحملون أسلحة ، فتوقفنا حتي التصقوا بنا وطلبوا من السائق ان يعطيهم الموتور الذي يحرك الأنبوبة ، انهم قراصنة البحر صرخ كل من في المركب لا يمكننا ان نعطيك الموتور فماذا سيكون مصيرنا ، فاشهروا سلاحهم وقالوا سنثقب الانبوبة وكانوا جادين بصورة غريبة وكأن أرواح هذه البشر لا تعنيهم ، فسحب السائق الموتور ومعه صاحب البوصلة والنساء يترجون القراصنة بترك الموتور ولكن القراصنة أخذوه وانطلقوا ، وكأنني أحلم ما هذا ؟!

وبدأت النسوة تبكي لقد اخبرناهم إنا معنا نساء لم يهتموا ، واطفال ايضا لم يعيرونا انتباها ، انطلقوا ليبيعوا هذا الموتور بحفنة جنيهات ، أن أرواحنا في هذا البحر بدراهم معدودات ، لقد قضي الأمر ، واصبحت الانبوبة تتماوج في عمق المحيط بدون هدي ...

بعد أن اخذ القراصنة الموتور صارت الانبوبة تتقاذفها الأمواج وفقدت اتزانها وتأكد للجميع أنها لن تصمد طويلا» ، وإجتاحتنا موجة من الخوف فالنساء يولولون ، والأطفال يبكون ، والرجال

يدعون بحسن الخاتمة وتلهج السنتهم بالدعوات كلما نظرت اليهم، واصحابي الجدد بجواري صامتون صمت القبور ، ولا يسمع إلا صوت اثنان من الافارقة يتلون القرآن ويهللون ، وكلما اصطدمت موجة بالانبوبة وارتفع بجنبة من جنباتها تكاد تنقلب يصرخ الجميع ، ونحاول ان ندفعها الي الأمام باجسامنا من داخلها ، وكأننا نضحك علي أنفسنا مع هذا اليم وهنالك مجموعة تتقيأ حتي امتلأت وسال تقيؤها تحت أقدامنا فقد اصابهم دوار البحر .

أكثر من ساعة والأنبوبة تتهادي وشعاع الصباح بدأ يرسم في الأفق ليكشف ذلك البحر الواسع ، وكأنه بلا نهاية ولا توجد مؤشرات لوجود من ينقذنا ، وكلما توقف شخص داخل الانبوبة من فرط التعب صرخ فيه الجميع بالجلوس ، لان وقوف الجميع يعني انقلاب الأنبوبة ، حتي برزت هالة من الأمواج تسوق الانبوبة بسرعة جنونية والجميع يصرخ ، لقد اقتنعنا بانه الموت لا محالة ، فقد اصبحت تتمايل هذه الانبوبة بصورة جنونية ، واصحابي يتشبثون بي فقد كنت ضخم الجسد وهذا من كثرة الأطعمة الدسمة التي تجعلني اموت سعيدا»، فلم اظلمك يا بطني! .

ولكني كنت حزينا« علي هؤلاء الاطفال الذي لم يروا شيئا في هذه الفانية ، ولم يذوقوا حلوها وها هم يذوقوا مرها .

إنقضت ثلاث ساعات ، وهدأ الموج وكأنه أحس بدعاء هـؤلاء المستضعفين ، وسادت حالة من الصمت الرهيب ، وبدأت الشمس تعتلي كبد السماء والجميـع ينظـرون في الأفـق ويطمعـون في بـاخرة تنقذهم ، وقام أحد المهاجرين وقال:

نحن حتي الأن لم نخـرج مـن المياه الأقليميـة وهـذهِ البـواخر الضخمة من الصعب ان تتوقف لتنقلنـا او تسـاعدنا سـوي بإخطـار سفن الانقاذ لتنقذنا لذلك يجب علينا التلويح كلمـا شـاهدنا سـفينة عسي ولعلها تحدد لسفن الانقاذ مكاننا ، كنا نشاهد السفن المحملة بالحاويات وهي بعيدة ولا يسعنا سوي بعض الصـراخات ولا حيـاة لمن تنادي ، نظرت (لمحمد) ما رأيك في هذا الوضع؟ فقال:

اصبر لو كان مكتوب لنـا المـوت لمتنـا في بلادنـا او قتلنـا هـذا الليبي ولكنه امتحان .

توقف السائق وقال لقد اعطاني الليبي (النذير) هـاتف وقـال لي اتصل بسفينة الانقاذ ولكنه حدد لي بعد مسير لثلاث ساعات متتاليـة في هذه اللحظة ضج الأنبوب ، وهـاج فيـه الجميـع ويبـدوا انهـم لا يعرفون كيف يستعملون جهاز الثريا ، فقمـت مـن مكـاني واقـدامي لاتستطيع الحراك من طول الجلوس وانتزعت منه الثريا ، والجميـع ينظر لي مشدوها» فجميعهم يعلم أني أبكم ، وفتحـت الثريـا لم اهـتم

بنظراتهم كثيرا ، ووجدت رقم محفوظ بالانقاذ واتصلت عليهم ، حتي جاءني رد باللغة الانجليزية خالصة وبدأت أشرح لهم موقعنا وموقفنا ومن حوليّ يصرخون هذا الأبكم يتحدث الانجليزية ، طلبوا مني الانتظار لتحديد مكاني ، وكانت المفاجأة اننا ابتعدنا كثيرا ويحتاجون منا التقدم ولايستطيعون ان يفعلوا شيئا اذا لم نتقدم ، وعلينا الاتصال بالليبي الذي احضرنا ، واغلق الهاتف ولكن شعرت بانهم سوف يحاولوا ان يساعدونا ، شرحت للجميع وهم صامتون ، وجلسنا ننتظر لم يكن هنالك شئ نفعله .

اكثر من ساعة حتي شاهدنا انبوبة تماثل التي نركبها قادمة تجاهنا يبدوا انها رحلة اخري ، فوثبنا جميعا نأشر لها ، ونصرخ حتي كادت الانبوبة ان تنقلب ، طلبنا من الجميع الجلوس حتي اقتربت الانبوبة فشرحنا لهم ما حدث ، فقالوا هم ايضا يواجهون مشكلة فالوقود الذي بحوزتهم قد نفد وانبوبتهم مليئة بالمهاجرين ولا يوجد فيها مكان لشخص.

قضينا فترة عصيبة نتفاكر حتي إهتدينا لفكرة نعطيهم الوقود ويقومون بسحبنا وكان هنالك جبل متين فوافقوا ، وقمنا باعطائهم الجالون الذي يحوي الوقود ومعها الحبل الممتد علي طول الانبوبة وتم ربطه جيدا بانبوبتهم وبدأنا التحرك بهدوء ، لقد نجحنا حتي

بدات تسرع وطالبنا الجميع بالالتزام بالهدوء وعلي الذين يجلسون في الاطراف سحب اقدامهم من المياه حتي لا يثقلوا حركة الانبوبة وعدم التحرك ،ولا اريد أن أفتخر ولكني كنت مهندس هذا العمل واتحرك بكل الجنبات كقائدا« للأسطول رغم أني أرتجف من داخلي؛ ففي هذا الزمن اكون داخل المطعم أجهز الطلبات وأقدمها .

قرابة الساعة والنصف ونحن نسير واصحاب البوصلة يصرخون يمنة ويسري حتي اخذت جهاز الثريا وعاودت الاتصال فردوا وطلبوا منا الانتظار لتحديد مكاننا وجاءني الرد مخيفا -- لا حول ولاقوة -- .

قالوا لي بوضوح انت تحت نظرنا يمكنك التوقف او المواصلة...

فصرخت لقد نجونا ،، لقد نجونا ،، فنظر لي اصدقائي الجدد وهم يضحكون لقد وضعك الله امامنا لتنقذ الجميع فلا يوجد من يجيد التحدث مع سفينة الإنقاذ سواك...

طلبت من سائق الأنبوبة الأخري يوقف الموتور وصرخت لهم مخبرا» إياهم بالمستجدات ، واحتفل الجميع حتي خفنا أن تنقلب الأنابيب ، وبدأت تظهر لنا تلك السفينة الضخمة ورغم أننا لا نكاد نراها الا أنها تحرك المياه من حولنا ، والجميع مترقب ، ولا يعلم ما

هو الجديد ، حتي ظهرت من بطن هذه السفينة الضخمة زوارق صغيرة تترى لنا من بعيد ، وهي تنطلق نحونا ويصخب الجميع ويصرخون ، ونطالبهم بالصمت حتي بدءوا يدورون حولنا وجاءنا صوت مكبر الصوت ، واضح يشرح لنا بعدة لغات ولم يتبينوا اخوتي الا لغة العربية والتي جاءت في الأخير كعادتها ، وكانت كالاتي:

علي الجميع الإلتزام بالصمت وعدم التحرك ، سيكون نصيب كل فرد سترة نجاة سنمررها لكم من بعيد ، انتم الآن في أخطر مرحلة فتسابقكم للصعود سيكون نتيجته الموت ؛ الزموا الهدوء ، الزموا الهدوء سنسحب الاطفال اولا»، ثم النساء ، ثم البقية وكانت هنالك مسافة كافية خوفا من هلع الجميع وتقافزهم ، حتي رموا لنا السترات ووجهوا بكيفية ارتداها وكان نصيبي سترة ، حاولت ارتديها رغم صغرها ولكنها تجعلني في مأمن ، وارتدي الجميع السترات في الانبوبتين وبدءاو يقتربوا منا بالزورق الأول ، ويسحبوا الاطفال واحدا« تلو الآخر ، ثم النساء واصدقائي بجواري ، حتي جاء دوْرنا وصعدنا جميعنا الزوارق وتحركنا ، ونحن لا نصدق حتي التصقت بالسفينة الضخمة ، وكان الصعود عن طريق الحبال ، فردا« فردا» ولم يكن صعب بعد نشوة الإنتصار حتي وصلنا لداخل هذه السفينة الضخمة واجلسونا في قاعة كبيرة وعددنا أكثر من (٢٤٠) شخصا» ، وتم توزيع أكياس تحوي ملابس داخلية ، وملابس

رياضية ، توزعنا في الحمامات والسفينة مثل خلية النحل ، كان الحمام شئ لايصدق وخرجت منه وان احس احساس غريب ، والجميع يناديني ( الأبكم) فقد لصقت التسمية بي .

جلسنا حتي احضر طاقم السفينة وجبة (مكرونة باللحمة )، ووزعوا لنا قوارير المياه ، وافترشوا لنا بساط والجميع مشغول بنسج احلام لعالم خالي من الفقر، ومستقبل يزهر بالحياة الطيبة ، وجاء المسئول من سفينة مرحبا» بنا وقال:

ستقضون معنا يومين حتي ننزلكم لأول نقطة ايطالية نحمد الله علي السلام ، واستمتعوا بالرحلة بهدوء ، في هذه لحظة تيقنت ان طريقي اصبح بلا عودة وتحدثت مع (محمد واشرف) ما هي وجهتكما؟ فقالا لي :

فرنسا فلدينا كثيرا« من الأهل والأصحاب وكانا مشغولين ، فقد اخرجا من جيبهما أنبوبة صغيرة كانا يمسحان بها اصابعهم ، واعطوني ايضا أنبوبة سالتهم ماهي ؟ فقالوا:

الايطاليون لديهم اجراءات بصمة إجبارية وهي تعوق تقدمنا نحو فرنسا وتجعل الفرنسيين يعيدوننا لايطالية بسبب بصمة (الدبلن) فسألتهم وهل ايطاليا سيئة ردوا :

نعم فهي لا تقدم عائد مادي مجزي ، ولاتوجد بها فرص عمل ، لم اهتم ببقية حديثهم.

وقضينا ليلتان علي ظهر السفينة نأكل ، ونشرب ونتجول لنشاهد البحر ، وعقلي مشغول ، وذهني شارد في هذه الورطة التي وقعت فيها، - واحمدالله - أنني نجوت .

حتي وجدنا أنفسنا ندخل هذه المدينة الساحلية الجميلة ونهبط ارتالا» لنجد انفسنا امام الشرطة الإيطالية التي تحاصرنا من كل الجنبات ، وتأخذنا بباصات كبيرة ، والجميع مشغول بتبليغ ذويه وأسرته بأنه بخير ، حتي أنا أخذت فرصتي ، وارسلت رسالة وبلغت أخي بأني بخير ، وقل لوالدتي - حفظك الله - الموضوع نجح ، وأشكرك لدعاءك الذي لولاه لما نجوت وانا الآن في احسن ما يكون .

وجدنا أنفسنا بمعسكر يتشابه شكله مع السجن ، تم عمل اجراءات البصمة ولم يكن هنالك مفر بقوة السلاح ثم اخذوا بصمتي، وكل الذين رفضوا وجدوا أنفسهم مقيدين معزولين من الآخرين .

كان اصدقائي بجواري في المعسكر الضخم ، الذي قضينا فيه ليلة وفي اليوم الثاني وجدنا الباصات تقف لتاخذنا لمدينة (روما)

توطدت علاقتي بالاصدقاء الجدد فقد بلغت صداقتنا اربعة ليالي واستقبلتنا (روما) بضجيجها ومناظرها الخلابة .

لم نصبر في (روما) فهربنا من المعسكر حتي وصلنا للحدود الفرنسية ومنها عن طريق التكاسي لمدينة (نيس) الفرنسية ونفذنا لعبة القط والفار مع الشرطة الفرنسية في القطارات حتي وجدنا أنفسنا في (باريس) مدينة النور وتوجهنا الي اماكن تجمعات السودانيين ، وكان طريقنا معبد لان تحركنا مبني علي اخوة سبقونا وهم متواصلين مع اصدقائي .

حتي بلغ بنا الأمر بأنا وجدنا أنفسنا ننام تحت جسر كبير ، نفترش الأرض ، ونلتحف السماء ، أوروبا ليست كما يتوقع الجميع فالبداية بكل المقاييس صعبة ، ولا يوجد من يساعدك فجميع من تعرفهم يرشدونك للجلوس مع اخوتك ، حتي يتم ترحيلك من قبل الشرطة الفرنسية وكنا ثلاثتنا محظوظين فقد تم ترحيلنا لمدينة (ليون) بعد سبعة ايام مع اصدقائي ووزعونا في غرف صغيرة ، وذهبنا (للبرفكتور) بعد مساعدة من (السوشيال) فقد حددوا لنا مساعدات اجتماعيات ، وتقدمنا بطلبات لجوء ، وتمت اجراءات البصمة وكان حظي مختلف عن الآخرين فلم تظهر بصمتي التي اخذوها مني في ايطاليا ، وتم تسليمي الملف لأكتب قضيتي ،

واصدقائي رغم الاشياء التي فعلوها في أصابعهم فقد ظهرت بصمة ايطاليا ، وفي هذه الحالة تخاطب الحكومة الفرنسية الحكومة الإيطالية ويكونوا هم في الإنتظار ، وعدت أبحث عن قصة لأكتبها تكون دموية ومآساوية اقنع بها المحكمة الوطنية للاجئين (الاوفبرا) ويمنحوني حق اللجوء ، وعدنا للسكن سويا« وقابلنا المسئولة ، وشرحت لها الوضع ، فوعدت بمساعدة اصدقائي ، وطالبتني بتجهيز قصتي .

ولا أريدأن أخفي عليكم فحظي في اوروبا يختلف عن الآخرين فقد كانت المسئولة عني تشابه العنب الأحمر عندما تبتسم ، واشعر في بعض اللحظات أن عيونها تراقبني خلسة ، وكنت سعيدا» بتلك المراقبة الخفية ، إلا إن هذه الأمور تحتاج لطهو علي نار هادئ ...

إجتمع اصدقائي في غرفتي يتدارسون معي لكتابة القصة ومن ثم تترجم للغة الفرنسية وترسل للمحكمة الوطنية للاجئين بفرنسا (الاوفبرا) وهذا هو النظام المتبع ، ولكن جميع اصدقائي محتارين فهم لديهم مشاكل في مناطقهم وحروبات وابادات بغرب السودان ، أما أنا فمن وسط العاصمة السودانية فيجب ان يكون لدي قضية سياسية مقنعة وللأسف لا افهم في السياسة سوي ان حكومتنا سيئة شردت المواطنين ، وضيعت البلاد ، ونهبت الثروات ، ولكي اشرح

هذا يجب أن أكون مثل الزعيم (مانديلا) .

اتصل (اشرف) بأحد المتخصصين في هذا المجال واخـذ منـه معلومات كثيرة ونحن ننتظر الخلاصة وسحبني على ناحية وهمس لي في اذني !!

وقلت له : لا يا اشرف الا هذه إلا هذه ، انا رجل بكامل أهليتـي شرعا« وقانونا» ولو لا وجودي معكم لكنتم في قاع المحيط ضـحك (اشرف) وقال لي :إنها علي الورق ، يا صديقي ، فانت رجل فـارس ، فقلت له : اتريدني ان اقول أنا !! حتي لساني يعجز من ذكرها هذا مـا يفعله الجبناء ، من الافضل ان ارفض الاقامة واعود بكرامتي لبلدي، وهذه الباحثة التي ترمقني بتلك النظرات الساحرة ، كيف أشرح لهـا لا ، لا ، تريدني أن أقول أنا (مثلي) مستحيل أن يحدث هذا .

ساد السكون وبدءوا يفكروا في حـل جديـد ، ولكنـي وجـدت الحل ، فقلت لهم :

لدينا كفتريا جوار (القصر الجمهوري) قبل أن اسافر ليبيـا كنـت اعمل فيها مع (خالي) تم إغلاقها بحجـة انهـا في منطقـة أمنيـة ، وتـم تسليمها بعد فترة لأحد منسوبي جهاز الأمن قام (خالي) برفع شكوى ضد القرار ، لكنهم قاموا بإعتقاله وتعذيبه فخاف وسـحب شـكواه ، سوف أتبنى هذه القضية وأكون انا مكان (خالي) .

أيدني الجميع : كتبنا الحيثيات ودرسنا القضية من كل جوانبها ، ونمنا جميعا في غرفتي ، لقد جمعتنا كلمة واحد بإختلاف اشكالنا واعراقنا ومواريثنا ، اخوة تحت غطاء كلمة عميقة انه السودان ، وكم انا سعيد بان لي اخوة جمعتني بهم الارض والظروف ، فصاروا جزءا» من حياتي ، ويبذلون كل ما يملكون من اجل إسعادي ، ولكن السؤال الذي يؤرق مضجعي ، كيف اتيت لهذه البقعة ؟ وكيف تكون نهايتي ؟

أطل الصباح ،وأطلت هي الشفيفة ، الممشوقة الضاحكة (نينا) والعيب الوحيد فيها ، انها ترتدي ملابس خفيفة ، وعندما تريد ان تتحدث معي تلتصق بي ، وهذا ما يجعل جسمي يرتجف ، وأعصابي تنهار ، واشعر انها ستدخل داخل جسدي وهي ترمقني بتلك النظرات التي تهدم الجبال ، من أين اتيتي ايتها الكرزة الريانة، من عطش سنيني المحروق ؟.

حتي القضية التي حفظتها لأكتبها نسيت كل تفاصيلها ، الا أن جاء (اشرف) وذكرني بها ، لقد تربينا في عالم الجفاف ، ووجدنا انفسنا في هذا الموطن نسقي من شلالات متدفقة من نبع حنان .

كتبت لي القضية كاملة وتم ارسالها (للاوفبرا) . وانتظر الرد للمقابلة من داخل المحكمة لأخذ الاقامة .

وحددت لنا (نينا) مدرسة لتعلم اللغة الفرنسية ، وهنالك نثريات مالية بسيطة من قبل الحكومة الفرنسية لمجابهة الحياة ، ويمكنني ان أوفر منها لإرسل لاهلي بعضا منها ، ولكن تبقي مشكلتي في حوجتي لبعض التمارين فجسمي بدا يترهل من الراحة والنوم ، وبطني بدأت تكبر حتي بدأت تلاحظها (نينا) وهذا ما يخيفني !.

فأشار لي اصدقائي باستخدام حزام ضخم اربطه حول نصفي ليشد عضلات البطن ، ولكن هذا الحزام الملعون عندما كنت اركب في المترو للتجول في المدينة (ليون) يضايقني فأرخيته قليلا« وكانت هنالك نساء ينظرن لي بصورة غريبة ، وفجاة وجدت الشرطة تطبق علي من كل الجوانب ، وسحبوا مني الحزام ، ظنا» منهم انه حزام ناسف ، وعندما وجدوه حزام للبطن اعتذروا لي اعتذار شديد ، فنحن اصبحنا مصدر ازعاج لهؤلاء الفرنسيين بسبب بعض المرضي المتطرفين ، وكان بامكاني ان أرفع قضية ضدهم ، ولكنني فضلت الصمت ، ورميت الحزام في مكب النفايات ...

كانت الليالي كئيبة في (ليون) تملؤها مسامرة اصدقائي فقط ، فنجلس ثلاثتنا نتناقش في اللغة والمستقبل ، والباحثات الجميلات وهن مجموعة من الباحثات وكل واحدة لها ميزة وكانت (نينا) هي

سيدة المميزات والمؤهلات وكانت تهتم بي ، وتأتيني لتبحث عني في غرفتي فأضطر غير باغ لجعل الباب مفتوحا» ، وحددت لنا منظمة تدعمنا ببعض الأغذية والمعلبات ، وتراجع معي اللغة الفرنسية وكلما ذهبت لاعداد شئ في المطبخ ، أعود فأجد باب غرفتي مغلق وهي معي ، فافتحه مواربا« وكانت تضحك ضحكة تشق صدري ، واستمتع بتناول الطعام معها ، حتي يعود أصحابي ، وكنا نقضي أوقات ممتعة حتي جاءني إشعار بحضوري ، لمحكمة (الاوفبرا) لمساءلتي في القضية ومنحي الاقامة او رفضي ، وفي هذه الحالة أستئنف القرار للمحكمة العليا ، وكانت (نينا) مؤمنة بمنحي الإقامة الدائمة وهي عشر سنوات ، وكان وضعي قد تحسن وملكت هاتف، وبعض المنظمات وفرت لي الملابس ، وبدأت الاستعداد للتوجه لمدينة باريس للمحكمة ، وكان الجميع يراجع معي القضية حتي نغلق كل الثغرات ، واستلمت التذكرة في ذاك الصباح من (نينا) وحددت لي فندق في باريس للمبيت واليوم الثاني الذهاب للمحكمة (الاوفبرا) والعودة في قطار الرابعة ظهرا لمدينة (ليون) اخذت كل التفاصيل وانا بين الخوف والفرح ، وذهبت لغرفتي واعددت حقيبتي الصغيرة ووضعت فيها كل ما احتاجه ، وتمددت أفكر في كيفية التعامل مع هذه المحكمة ، وسمعت طرقات علي الباب وكنت أعرف صاحبها لقد كانت (نينا) نظرت لي بحنان غامر ويبدو انها

خائفة علي من المحكمة وقالت لي : ارتدي ملابسك فسوف آخذك معي في مشوار صغير ، كنت ارتدي ملابسي وعقلي يقول لي :

انك مقدم علي خطوة كبيرة في مستقبلك ، يجب ان لا تغلط وتحافظ علي نفسك ، فاذا اخذت الاقامة سيوفقون لك اوضاعك وسيكون وضعك مميز ، يجب ان تتعامل بأصلك مع نينا ، كنت اتحدث مع نفسي حتي شعرت بها تناديني أسرع يا (الريح ) هذا الاستعجال تختبئ خلفه اشياء ، وهذا ما يجعلني افقد اعصابي ، خرجنا دون أن اسالها عن وجهتنا ، كانت تلتصق بي ونحن ننتقل في السيارات حتي وصلنا لذلك الحي الراقي ، ووجدت نفسي أقف تحت ذلك المبني الجميل معها ، فقلت لها :

الي اين تختطفيني فضحكت ببشاشة وقالت لي :

لشقتي ودخلت لذلك المبني وانا خلفها متوتر أكاد أرتجف من اللحظات القادمة ، حتي صعدت شقتها في الطابق الاول وكانت شقة جميلة اجلستني في الصالة ، ودخلت احد الغرف وكانت الصالة جميلة، ملىء بالتماثيل الصغيرة والدببة التي يحضرونها في اعياد الميلاد ، تفوح منها رائحة جميلة ، وامسكت باحد الدببة المصنوع من غطاء الحرير البنفسجي ، ويوحي بجمال إنتقاء شاريه ، فسمعت صوتا« رجوليا» خلفي وبلكنة انجليزية مميزة يقول:

لقد اشتريته (لنينا) قبل خمسة اعوام هذا الدب ولا تـزال تحـتفظ به ، رغم المفاجـأة بوجـود رجـل في شـقة (نينـا) الا انني تمالكـت نفسي، وقلت له أنه حقيقـة جميـل يوضـح ذوقـك ، لم يتمالـك نفسـه فضحك وقال لي :

لقد صدقت (نينا) فقد قالت انك شاب لطيف ، اعرفـك بنفسـي (وليم) صديق (نينا) لقد احضرتك نينا لأشـرح لـك كيـف سـتكون مقابلتك في المحكمة وجلسنا ، وهو يشرح لي ، ونينا تتحـرك حولنـا وانا انظر لذلك العصفور الكناري ، ما اسعدك يا (وليم) به !

ولا ادري كيف تستقبلها عندما تكونوا لوحدكم ، وكأنك تستقبل شلال يتساقط في بحيرة عطشى ، وما أشقاني وانـا احلـم بخريـف لا يحمل سوي الاوجاع !.

كان كلامـه مثـل الهـذيان فقلبـي وعقـلي شـاردان ، في خطـوط يصعب علي الالتقاء بها .

خرجت منهم ، وهبطت معـي تـودعني في الطـابق الارضـي ، وامسكت بيدي بلطف وقالت لي :

لا تخاف فنحن معك وستعود منتصر (الريح) ، وتقدمت بهدوء نحوي وقبلتني قبلـة فرنسـية عـلي خـدي لم أشـعر سـوي بإصـطدام

شفتاها التي تشابه قوالب الحلوي بذاك الرصيف الذي يسمونه خدي ، وانا جامد مثل الصخرة وصعدت ، ولا تزال الصعقة الكهربائية تخدر جسمي .

وانطلقت حتي كادت تصدمني سيارة ، ما هذه التناقضات الغريبة وهذا العالم الممزوج ؟

اغلقت كل ابوابي من اصدقائي ، وانطلقت في أول قطار متجه لمدينة باريس ، واستقبلتني باريس ، برزاز خريفها المتباكي وسماءها الصاخبة التي تحمل وعود يصعب الايفاء بها .

كان الساعة التاسعة والنصف موعدي ، لأجد نفسي امام ذاك المتحري الجزائري الممشوق المبتسم الوجه ، وكان حديثنا لا يحتاج مترجم ، فطلب مني تعريف شخصي واندحت في السرد وهو يطلب مني التوقف للكتابة في تلك الشاشة المسطحة التي تقبع امامه وحينا« يطلب مني المواصلة حتي انتهيت ، وكانت تجلس بجواره فتاة فرنسية ترمقني بالنظرات واظنها تحت التمرين ، وكلما وقعت عيني في عينيها ، أتذكر أني ملدوغ فيجب أن أحترم نفسي ، سألني اسئلة كثيرة ولكن ختم اسئلته بسؤال غريب ، لماذا لم تتقدم بشكوى عندما اتهموك العساكر بانك ترتدي حزام ولم يكمل ؟

ضحكت وقلت له :

لأنني مقدر ما يمرون به هؤلاء العساكر جراء المتطرفين .

فقال لي بإبتسامة: سوف نرد عليك خلال شهر ، تفضل .

وخرجت نحو القطار وانا مطمئن ، وخائف في آن واحد ، إن هذه الدول الغربية لا تترك شيئا للظروف ؛ لذلك ساروا الي الأمام ...

ركبت القطار متحرك لمدينة (ليون) وكان تفكيري منصب علي نقطتين :

كيف علموا هؤلاء بموضوع الحزام ؟.

وما فائدة السؤال ؟.

والنقطة الثانية :

لماذا تعاملني نينا بهذه الطريقة ؟.

لم ينقطع تفكيري حتي وصلت والليل يتنفس والساعة تقارب العاشرة ، وانا منهك وانا داخل علي بوابة المبني ، لأجدها أمامي بشحمها ولحمها وهي تنظر لي بشوق ولهفة ثم قالت لي :

لماذا لا ترد علي الهاتف؟ فقلت لها :

لقد وضعت الهاتف صامتا« وانا ادخل للمحكمة ، ولم أتذكر أن أعيده لوضعه العادي ، آسف( ......) وكدت أن أتمها لو لا أني

إستحيت فتقدمت نحوي ، حينها سمعت صراخ صديقاي (أشرف ومحمد) بصوت واحد -- حمدلله علي السلامة -- والتفت لهم ، وهم علي الشرفة فقلت لهم : تسلموا يا اصدقاء والتفت لنينا فوجدتها داخل سيارة سوداء ، فقلت مندهشا»الي اين ؟ وما هذه ؟ فضحكت وقالت لي :

انها سيارتي ولكني أكره القيادة بالنهار؛ لكثرة الزحام وادارت موتورها وإنطلقت ، وانطلقت نبضات قلبي خلفها...

صعدت ، واحتضنني الاخوة وانهالوا علي بالاسئلة حتي وجدت نفسي في سبات عميق .

كان الصباح جميلا« والجو هاديء ، فاغتسلت وانطلقت نحو المكتب لمقابلة (نينا) ولكني أستوقفت نفسي اساءلها ،ماهذا الذي أعيشه في داخلي؟ و ماذا أريد من (نينا) طالما أن لها صديق؟ ، والصديق للفرنسية هو زوج بدون أوراق رسمية ، ولكن جميع الحقوق متوفرة ، وله الشرعية المطلقة والواجبات ، وأين أنا موقعي من الإعراب ؟، واذا كنت انا الجلف القادم من بلاد بعيدة ، معجبا»بسحرها ، وأناقتها ولطفها في التعامل ، فما الذي يجعلها تساهر لتنتظرني ؟؟ ، هل هو نوع من الإنسانية ؟.

طالما هو كذلك فلتكمل جميلها ، وتحبني بدواعي الإنسانية .

وصلت المكتب وانا فرح ، ومنشرح الصدر ، ووجدت (اشرف ومحمد) ومعهم (نينا) ولكنهم واجمون صامتون ، وكأن هنالك شيء حدث ، فقلت لهم :

لماذا الصمت ماذا حدث ، فقالت لي (نينا) لقد جاءت خطابات من (البرفكتور) أو الشرطة المسئولة من اللاجئين مطالبة بعودة (اشرف ومحمد) لايطاليا ، يا له من خبر سيء! .

وما العمل فقالت لي : سنفوض محامي لرفض طلب عودتهم لايطاليا ، رجعنا الي السكن ونحن كئيبين من هذا القرار ، وتفاكرنا وعاد كل الي غرفته فقد كان الجو مشحونا» ، وحاولت ان اقرأ قليلا« فلم استطع ، فخرجت لأجد (اشرف ومحمد) وهما يحملان حقائبهما فسالت بهدوء :

الي اين ؟ فرد علي( محمد) : لقد حددنا وجهتنا وكنا نود أن نهرب منك فلا نستحمل أن نودعك يا صديقي! سنحاول العبور لبريطانيا فربما يكون الحال جيدا» هنالك ، فقلت لهم :

لا يمكن أن اترككم تذهبون لوحدكم سوف أذهب معكم قاطعني (أشرف) بحزم:

لن تذهب اي مكان لقد تحدد مصيرك ، سنكون علي تواصل

معك ، فالمحاولات لبريطانيا لا تكون بين ليلة وضحاها ، وتركوني وهم ينطلقون بسرعة لقد ثقلت اقدامي للعودة للشقة ، وكأنهم عاشوا معي مائة سنة ، ودخلت غرفتي ودموعي تسبقني وأشعر بأني اختنق ، وتوسدت فراشي لاخبئ راسي ، وكأني طفل فقد والديه ، حتي شعرت بمن يمسح علي شعري ، فرفعت رأسي لأجد (نينا) وهي منزعجة وهي تسألني :

ما بك يا (الريح) ، فقلت لها:

لقد رحلوا ، رحلوا واظنها قد فهمت الامر فقالت لي : لقد استعجلوا كان يجب ان ينتظروا فالمحكمة يمكنها ان تحل مشكلتهم ، وتكسر لهم البصمة ، وبلا مقدمات احتضنتي وقالت لي :

لا تحزن سوف يعودون ، وحقيقة في هذه اللحظة اختلطت كل خطوطي الداخلية فلم يحتضني في حياتي البائسة سوي والدتي ، ولا أدري في هذه اللحظة أأبكي ام أضحك ؟.

ورغم الدفء الذي إجتاحني والهيام الذي يغمرني ، وتلك الزهرة البنفسجية التي تتوسدني بحنان لم أجده في ظلام افريقيا بكل اضواءها ، وشموسها الحرى ، الا أنني شعرت بهذا الأمر مجرد مواساة ، وتعزية ، وهي تشجعني بجمل ، أغلق التصاق جسمها طبول أذناي لكي أسمعها ، وحاولت بقدر الإمكان أن تهبط من

عيوني بعض الدمعات ، لتزيد التآسي ، وأظل في حضنها فترة أطول ، ولكنها إنسحبت متعذرة بالزمن .

وقالت لي :

لقد احسست بأنك تحبني ، كادت عيوني أن تخرج من محجرها، وأنا أسمعها ، وواصلت في حديثها ، وانا حقيقة تعجبني طيبتك ، ولكني ارتباطي بك يعني فصلي عن العمل لمدة أقلها سنتان، وتغريمي مبلغ ضخم ، وهذا يدمر حياتي ، وسوف أعتصر قلبي لتكون علاقتنا علاقة عمل ، آسفة على إوجاعك ، وخرجت ..

وكأن هذا اليوم يعاقبني بكل ما يملك ، ونظرت لها من الشرفة ، وهي تلوح لي وكأني لن أراها ثانية»...

تقلبت في مرقدي حتي أطل الصباح ، وانطلقت نحو المكتب أنتظر (نينا) لم تحضر، وسألنني الباحثات عن ماذا أريد ؟ فلم استطع أن أجيب ، وخرجت متجها« للمدرسة التي قضيت فيها ساعات لم أتبين ماذا درست؟.

وعدت للغرفة ، وحاولت أن أتمدد علي فراشي ، وكأني اتمدد علي الجمر ، وخرجت نحو غرفة اصدقائي التي كانت خالية ، اتصلت عليهم، فأجاب (محمد مدثر) وقال لي : نحن علي مشارف

(بلجيكا) وهنالك معسكر يحوى لاجئين يتسللون من خلاله لبريطانيا عن طريق الشاحنات ، والباصات السفرية ، تمنيت لهم التوفيق .

خرجت وجلست تحت المبني ، وشاهدت الشرطة تحيط بسكن إحدى اللاجئات الإفريقيات ، ومن حديثهم فقد وشي بها بعض اللاجئين ، بأنها تمارس الدعارة أو تحضر فتيات مقابل عائد مادي ، وجاءت الشرطة وأخذتها بعد مشادات ، وصراع ، وتم نزع الأطفال - لتستلمهم الحكومة الفرنسية ، ولديها ثلاثة اطفال ، من ضمنهم طفلة رضيعة لم تبلغ من العمر شهرين - أن القانون الفرنسي يحاكم في قضايا الدعارة اذا كانت مرتبطة بعائد مادي ، ويعد إنتهاك للإنسانية ، فيجب أن تكون العلاقات مبنية علي نازع أخلاقي أو حب!

أما المبنية علي مقابل مالي فيعد جريمة - سحبوا أطفالها واقتادوها للمحاكمة ، فالأطفال ترعاهم الدولة الفرنسية ، وهي صاحبة القرار في تهيئة بيئة صالحة لهم ، -- سبحان الله -- .

قضيت أكثر من شهر ، وأنا وحيد أتوسد حوائط غرفتي واذهب يوميا« للمكتب لقد تم نقل (نينا) لمكتب آخر ، واستلمت الرسالة التي منحتني إقامة عشر سنوات ، وقفزت في شوارع (ليون) فرحا» ،

ولكن لوحدي ، ولا تسعدني سوي بعض الإتصالات من أفراد أسرتي لتنهال علي التهاني ، والتبريكات.

وعدت لغرفتي الكئيبة لأجد ورقة صغيرة مكتوبة باللغة الانجليزية :

(العلاج الذي لا يحوي ألم غالبا« لا يفيد ....

إقامة طيبة في باريس)

(نينا) .

شعرت بغصة في حلقي ، وقلبي يعتصرني ، لقد قضيت شهر أتقلب في فراشي كي انساها ؛ ولكنها كلما غابت توهجت في داخلي ، وشعرت أنها تعاني أيضا» ، وقلت مواسيا«نفسي :ربما هذه الإقامة التي منحتني لها الحكومة الفرنسية تزيل هذا الجدار .

أغلقت غرفتي ، وخرجت لقد حددت وجهتي ، وأنا في المترو اتصل بي (محمدمدثر) واستقبلت مكالمته وهو يصرخ :

لقد نجحنا يا صديقي ، ركبنا شاحنة ، وتم تفتيشها ثلاث مرات، ولم يعثروا علينا ، نحن الآن في بريطانيا ، ووصلتني أصواتهم من خلال الهاتف ، يتقافزون ويرقصون ، وأغلقت الهاتف.

في هذه اللحظة كنت قد وصلت شقة (نينا) فقرعت الجرس ،

وأنا أفكر ماذا أقول لها ؟ حتي فتحت هي بصورتها البهية التي تجعلني دائما أتوقف دقيقة مشدوها بالجمال الفرنسي ، والقوام اللادن ، والشعر المتدفق ،والعيون الساحرة ، وهي تنظر لي مندهشة، فقلت لها :

لقد نجح صديقاي وهم الآن في بريطانيا ، لقد ركبوا شاحنة تم تفتيشها ولم يعثروا عليهم ، كنت أبحث عن حديث ، أو سبب يجعلني أراها ، وكنت اتذرع حتي يبدو في محياي حتي أنني كنت خجلا ، ولكنها لم تتغير ( نينا) فأحتوتني ، وعانقتني حتي شعرت بيديها تمسح علي ظهري وهي داخل صدري العطش الظمآن ، وعادت للخلف خطوة ، ومهما ما تريد أن تقوله فأنا أتحمله ، فيكفيني أنني التقيت بها وسعدت بقربها ، لا يوجد حب كامل ، ولا سعادة كاملة ، الآن أنا مقيم في فرنسا ، وسوف أحصل علي إمتيازات، واصحابي وصلوا لبريطانيا ، كل هذا يدور في خاطري وهي تنظرني مبتسمة ، يجب أن أشكرها ، وانسحب من حياتها ، ولم يمكنني أن ادرك كل شئ جميل في الحياة .

كان الصمت طويل وهي تفكر ، كيف تتخلص مني ، فقد أصبحت زائرا» ثقيل فقالت لي :

(الريح) هل ستعيش معي في شقتي ، أم أذهب لأعيش معك في

غرفتك ؟، ولا تنسى في الحالتين ستتقاسم ثمن الإيجار ...

ليس كل النهايات تكون بهذا الشكل ؛ فالبحر الأبيض يحوي آلاف الأرواح التائهة ، وأوروبا إختبار نتيجته يكون تسكع الكثيرين من الشباب ، او يسقطوا فيه ؛ حتي يصابوا بالجنون .

ولا أزال أعيش في مدينة (ليون) الساحرة ...

## (١٢)

وأنا في قلب (الأشابيل) لا أزال أذكر حديثي مع أحد المحاولين وهو يشرح لي قصته في محاولة العبور لإنجلترا :

أخي لم يكن الوضع كما تراه أنت!!،

هكذا بدأ ( اندرايج ) حديثه ، فأنا كنت في مدينة (كالي) النقطة الحدودية الأخيرة لفرنسا ، يقابلها من الجانب الآخر دولة بريطانيا ، التي يجتهد اللاجئين للعبور اليها ، وكل يحمل طموحه وأمانيه للعبور ، الذي لا يخلو من المجازفة ، عن طريق الاختباء في الشاحنات ، التي تحمل رخصا« مرورية ، أو الباصات السفرية ، وتقابلنا عوائق وهي : ثلاثة بوابات ضخمة ، والتفتيش يكون دائما مكثف ودقيق ، ويعتمدون علي الأجهزة ، والكلاب البوليسية المدربة ، ورغم ذلك ، فيكون النجاح متواصل للعبور بدخول بعض اللاجيئن سهوا ، او الاختباء في اشياء تمنع الأجهزة والكلاب المدربه من كشفها .

التقينا أنا و(مصطفي علي بشير ) في معسكر (كالي) الضخم الذي يحوي أكثر من ستة ألف لاجئ ، وكان شخصا هادئ متطلع مجتهد ، ولم يوفق في العبور كما هو حالي ، فقررنا بعدما توطدت

علاقاتنا العودة لباريس ، للراحة بعض الوقت ، وترتيب العـودة مـن جديد ، وعدنا وكنـت مقـدم في بـاريس ، احتياطيـا' ، اذا لم أتوفـق في الدخول لبريطانيا أكون سرت خطوات في الاجراءات الفرنسية .

كنا أربعة نجلس ونفكر في منطقـة (الأشـابيل) بمدينـة بـاريس حتي أتتنـا فكـرة جميعنـا تحمـس لهـا ، وكـان مـن ضـمننا صـديقي (مصطفي) .

وهي أن هنالك باصات تتحرك من بـاريس لبريطانيـا مباشـرة وهي لا تتوقف أبدا»؛ خوفـا مـن اندسـاس اللاجئين فيهـا وتنطلـق الباصات من محطة ( قاردلست) .

ولكن الحماية فيها مشددة فالشرطة تعلم بوجود متسللين ولكن اذا استطعنا الدخول قبل يوم ، داخـل البص ، وصبرنا حتـي اليـوم الثاني فيمكننا أن نعبر بسهولة ، وكان كل شئ يسـير بسـهولة وكأنـه مرتبا مسبقا أخذنا معنا ملابسنا وصـندوق كيـك ، وبعـض القـوارير للمياه ، وتوجهنا للمحطة ، ممنين أنفسنا بـالتوفيق ، وحتـي وصـلنا المحطة ( قارد لست ).

وكان المساء يرحل والساعة تجاوزت الثامنة ، والليل يسـترنا في تحركنا حتي شاهدنا الباصات الضخمة ، وبها العلامة البريطانية ، لم يكن هنالك أحـد في حراسـتها ؛ والسـبب أن موعـد تحركـه غـدا

الساعة السادسة والنصف كان اليوم هو السبت اذا موعد مغادرتها سوف يكون في يوم الأحد ، وكان الهدوء يخيم علي المكان ، وكلنا نتمني أن نجد مكاناً تحت ( الدينقل ) كما يفعل اللاجئين السابقين وعلي حسب ما سمعنا أن هنالك مقاعد ، أما في (الدينقل) الأمامي ، أو الخلفي داخل أي باص .

وعندما وصلنا تقدمنا (مصطفي) مباشرة تحت الباص ، وتحركت أنا للمراقبة ، ووجدت ورقة توضح زمن التحرك وهي : توضح أن الرحلة الأحد في الساعة السادسة والنصف كما توقعنا ، عدت مسرعا« بإحساس أن هنالك عيون تراقبنا ، حتي سمعت صوت (مصطفي) يهمس للذين معنا وهو تحت البص أن هذا الباص لا يحوي صندوق في (الدينقل) الأمامي ، علي حسب تصميمه وهو نوعية مختلفة من البصات ، وتحرك للبحث عن المدخل الخلفي كنا نتهامس ، حتي سمعنا صوته من تحت أن هنالك مكان يسع لشخصين فقط في (الدينقل) الخلفي ، وأنا من وجدتُ المكان اذا« هذه السفرية من حظي أنا والمكان المتبقي ضيق ، تحدثنا كثيرا في حقي وحقك كعادتنا ولم يخرج (مصطفي) حتي الشنطة اعطاني إياها صديقه الذي يحملها ، ثم ودعونا ، وتمنوا لنا التوفيق بين همس ، وفحيح حتي لا يشعر بنا أحد ، وانتظروني حتي زحفت تحت البص وكان المكان ضيق جدا» ، وهو يدلني

بصوت خافت وجدت كمية أسلاك كهربائية او كما يسميها المهندسين (شبكة) ، ولم أجد مدخلا لأصل حتي أخرج لي يده ، بين الأسلاك ودفعت له الشنطة التي تحوي ملابسنا اولا» ، وبعض الكعكات التي وضعناها لنتزود بها ، وزحفت أخترق الاسلاك في هدوء ، حتي وجدت نفسي أجلس قربه بهدوء ، وأخبرنا اخوتنا الاثنين ، المتبقيين بأننا بمأمن ، فعادوا أدراجهم ، وتركونا لوحدنا .

كان الظلام دامسا» ، والجو زطبا» ، ورائحة غريبة ونحن نجلس علي حديد كأنه مبتل من أثر الرطوبة ، وهو يبعدني بمتر ونص وخلف ظهري الماكينة ، بدأت أحاول أن أعود عيوني علي الظلام ، وأتبين بعض التفاصيل لموقعي ونحن نجلس علي (الدينقل) الخاص بالبص ، وكانت الفتحة التي دخلت بها ، تأتي بضوء خافت ، يجعلني أتبين ملامح البص ، ويقطع السكون صوت صديقي (مصطفي) وهو يتحدث لي عن سرعة الاجزاءات في لندن ، وسهولة العمل ، وآمالا« عراضا نسجناها في مخيلتنا الخصبة ، فقد كنت أسمع صوته ، ولا أراه .

وأوضحت له بأني (اندرايج) أي صغار السنة وهذا يحظي بمعاملة طيبة من قبل الإتحاد الأوربي وانجلترا بوجه الخصوص ، وطبعا (الاندريج) تعني أقل من (١٨) عام .

وحكي لي أنه خريج جامعة السودان كهرباء من أبناء سنار ، سافر لدبي ولم يجد حظه من العمل ، وعاد للسودان .

ظللنا قابعين في هذا البص حتي اليوم الثاني بين الخلوة مع انفسنا، والمسامرة حتي بان الصبح ، وبدأ يرحل لوقت الظهيرة ، وشعرنا بالممل والضيق ، وطلبت منه أن ننزل ، كان (مصطفي) رجلا طيبا ، صبرني بكلمات وجمل حماسية ، حتي اقتنعت ، وصعدت في أعلي (الدينقل) لأرتاح وبيني وبينه متر، فهو يجلس بين أقدامي ، شعرنا في تلك اللحظات بأن الزمن قد شارف ، ونظرت لصندوق الكعكات الذي تبقت منه اثنتين فقط ، وسرحت طويلا»، حتي شعرت بالأصوات من حولنا ، وهم يعتلون سلم البص والحركة تدب بصورة شديدة ، وشنط الراكبين نسمع إيداعها في الصناديق التي تجاورنا ، وخفقات قلبي تكاد تطير بين الخوف والرهبة ، وكان كل شئ يسير كما خططنا له حتي صدر صوت يدوي خلفنا ، لقد ادار السائق الماكينة ، وكان صوتها مزعج في بادئ الأمر .

وتحرك البص ، وتحركت معه ، كل طموحاتنا وآمالنا ، وحبسنا أنفاسنا ، وكان الصوت عاليا» ، والجو بدأ يسخن ، وكان (مصطفي) المرهق يرقد جوار (الدينقل ) ويرتدي جكيت مفتوح فقلت له أن السخانة زادت ، وتحسست الحديد من حولي فوجدته يغلي ، فحدثته

فقال لي : اخرج الملابس التي في الشنطة وافترشها تحتك ، يالثباتك يامصطفى!! كان ثابتا ، وهادئا» .

أخرجت الملابس من الشنط ، وبدأت افترشها والسخانة تزداد بسرعة ، ولم يمضي من الزمن سوى خمس دقائق ، قلت له يجب أن نخرج من هذا المكان ، أنه جوار العادم ولا يمكننا التحمل المشوار طويل جدا» ، طلب مني الصبر لساعات ونرتاح للأبد ، تحسست الأرضية كانت ساخنة ، ومن جوانبها لسعتني سخانتها ، كل شئ اصبح يلتهب وأنفاسي تضيق ، وكل ما حولي يتوهج .

في تلك اللحظة شعرت بأن هذه الرحلة سوف تقتلنا ، فلم يمضي أكثر من خمس دقائق ، والمتبقي لنا أكثر من سبع او ثمان ساعات.

فقلت له : (مصطفي) دعنا نطرق الصندوق لننبه الركاب فقال لي : يمكنك أن تنزل تحت قليلا» ، وأنا يمكنني الإنتقال الى الجانب الآخر لان (الدينقل) اصبح ساخنا ايضا ، فبدأ يضايقني لقربي من المكنة (والعادم ) ، صمت برهة وهو يتحرك وسترته التي كان يرتديها كانت مفتوحة ، وكنا نتحرك داخل هذا البص زحفا ، فالمكان ضيق وكأننا داخل قبر ، وهو تحتي مباشرة ، حاول (مصطفي) التحرك للجانب الأخر وانا أتابعه بعيوني ، وهو يحاول

العبور فوق (الدينقل) للجانب الآخر ، فابعدت أقدامي لتسهل له الحركة ، وانا أتابعه ولا أكاد أتبين ملامحه من شدة الضيق .

وما هي الا لحظات من الزمن أو برهة ، حتى شعرت بأن سترته قد التفت في (الدينقل) ، وبدأت تسحبه ، نعم سحبته... وهو يتمسك في أرضية الباص ، ولم تعطيني فرصة حتي أتحرك نحوه ؛ لضيق المكان ، سحبته سترته بسرعة جنونية ، فأنحشر جسمه بين عمود (الدينقل) ، وجسم الباص وحاول أن يقاوم ، وأن يبعد جسمه عن العمود الذي يدور بسرعة جنونية ولكن هيهات !! ، وسمعته وهو ينظر لي ، ويقول (الله) كانت قدمي محشورة خلف ظهره لم أشعر بنفسي إلا وانا أصرخ بقوة ، أصرخ ، أصرخ ، ولا حياة لمن تنادي ، وضربت الصندوق ، وكان العمود لازال يلف حول جسمه ممزقا« الجانب الأيسر من جسمه ، وحاولت أن اتحدث معه ، ولكنه لا يرد ،لا يرد ، كان ينظر لي بعينين جاحظتين ، ولسانه قد بدأ يتدلي ، وأمسكت به من شعره حتي أمنع سقوطه ، وحاولت سحبه بكل ما أوتيت من قوة ، ولكن لم استطيع وهو مسنود علي قدمي اليمنى التي انحشرت تحت ظهره ، ولازالت ممسكا» بجسده الذي احسست به صار ثقيلا« جدا».

بكيت وانا أطرق بعنف ، ويبدو أنه لم يسمعني أحد من ركاب

الباص ، تذكرت الفتحة التي تحت فأخرجت أحد ملابسي لأشر للعربات التي خلف الباص ، علهم يشاهدوني ولكن محاولاتي جميعها باءت بالفشل ، وتحدثت اليه ، بكيت وتوسلت له أن يتحدث، ولم يجب ، وكان لسانه يتدلي ،وأيضا يده صارت متدلية نحو الأرض وهو محشور ، وقدمي محشورة أيضا خلفه ، لففت القطعة في يدي وبدأت اطرق من جديد ، وفي يدي قطعة قماش كادت أن تحترق من شدة السخونة حتي فقدت الأمل ، واصبحت الحرارة لا تطاق ، وجسده الذي يثقل تحت قدمي .

وشعرت في تلك اللحظة بالباص يهدئ من سرعته وشاهدت (مصطفي ) وهو ينظر لي فلم استطيع النظر ، والعمود يدور في قميصه الذي تمزق ، وعيناه التي اختفي منها البريق ، فاسرعت بمعاودة الطرق ، حتي توقف الباص نهائيا، وشعرت بهم ينادوا باللغة الفرنسية التي لا أفهمها ولكن صراخي كان كفيلا« بتنبيههم لمكان وجودي ، وخروجي أصبح مستحيلا فصديقي محشور يغلق منفذ الخروج ، وقدمي محشورة تحته ، وبدأت ملامحه تختفي ، ولا أتبين وجهه ، وقدمي لا تزال محشورة بين ظهره وجسم الباص حتي أني لا أشعر بها .

سمعت صوت عربات النجدة او الشرطة ، حقيقة اصبحت لا

أدري ولا أعرف ما يحدث ، مضي زمن طويل أعادله منذ ميلادي ، وحتي هذه اللحظة ، وأنا داخل هذا الباص الملعون ، شعرت بشئ يتمزق فوق راسي ، انهم يمزقون المشمع ، ويقطعون الحديد فوق الكراسي ، ويطلبون مني خفض رأسي بلغة انجليزية وفرنسية ، حتي تم فتح منفذ ، وحاولوا إخراجي ولكن قدمي كانت عالقة حتي سحبوا جسم ( مصطفي ) جانبا فسحبت قدمي وانتشلوني للخارج ، وكأني ولدت من جديد وضعوني في عربة الإسعاف ، وكانت السماء تمطر ، والليل مسدلا» استاره .

وشعرت بأني سوف أنام ، وهم يلطمون علي خدي كي أستفيق ، ويسألونني وأجاوبهم ، وكان الحديث معهم باللغة الانجليزية داخل عربة الاسعاف ، سألتهم عن (مصطفي ) فقال لي : **(deab)** مات ، وغادر الاسعاف.

لقد انتهي كل شئ ولا أعرف بعدها ماذا حدث ؟؟ بالمستشفى قدموا لي بعض الأدوية ، وتحروا معي وأطلقوا سراحي) .

أكمل لي هذا الشاب القصة ورفض أن أكتب اسمه وقال لي : يكفيني أربعة ايام لم أذق فيهم طعم النوم ، واتجول بين الغرف ، وأخاف أن أضع راسي فوق وسادة حتي لا اتذكر المنظر ، وحاليا ذاهب لمقابلة طبيب نفسي احضرته السلطات الفرنسية لمعاينتي .

وخرج بهدوء كما دخل ..

تحركت ومعي قريب (عبدالله) لمعرفة مكان الجثمان الذي كانت تفاصيله عند الشرطة الفرنسية ، ويبدو أن المرحوم لا يحمل معه هوية ، واجتهدت معنا المساعدة الاجتماعية ( خيرة مويدن رجوح ) لها التحايا والأخ (النابلسي) وحضر أخوه من لندن لأكمال مراسم الدفن ، ومعه قريبه المهذب (عبدالله ) الذي أخطرني بالحادث ...

وسألنا الله أن يتغمده بواسع رحمته ويدخله مع الصديقين والشهداء ، جنة عرضها السموات والارض ذاك الشاب الطيب الأصيل

( مصطفي علي بشير )

-خريج جامعة السودان كهرباء .

ضاقت به سبل الحياة في وطنه فخرج ينشد الأفضل له ولأسرته .

حضر أخو المرحوم واستلم الجثمان وارسله لوطنه ليواري الثري معززا مكرما . ولا يزال (الاندرايج) متواصل معي في فرنسا بعد أن قدم طلب لجوء ، اذ اقتنع أن لامناص له سوي البقاء في فرنسا.

تبقي هذه بعض من القصص الحقيقة لاخوتنا الذين عبروا البحر، ورغم ذلك حاولوا الإنصهار في المجتمع الفرنسي ، ورفعوا صوتا يدل عليهم ، وليعرف العالم بأن هنالك شباب جاءوا بسبب ظلم الأنظمة الديكتاتورية التي سلبت منهم الحرية ، وأنتزعت منهم المساواة ، وحرمت عليهم الديمقراطية ، وكانت أقل ما يبحثون عنه في بلادهم العدالة الاجتماعية ، فتجنبوا رفع السلاح علي بلادهم وأهلهم وفضلوا العيش بعيدا« بأمان ، وجميعهم من بذرة مثمرة ، أينما حلت أثمرت ، بغض النظر عن أوطانهم التي أتوا منها ، كل همهم أن ينشروا خيوط الخير لتسعف إخوانهم في الوطن ، وإخوانهم القادمين من لهيب الوطن للمنافي ، وتفتح لهم مسار المعرفة والإدارك ، وتزيل عنهم غشاوة المستقبل المظلم ، والبعض منا إندرج في تعلم اللغة ، والبعض أمسي يطارد الاجراءات ، والبعض الآخر تحرك في أعماله التي تعلمها في وطنه ...

ولكن اخوتنا الذي عاشوا معنا تجربة البحر يبقون دائما معلما« بارزا» في ذاكرتنا لا يمكننا نسيانهم أو نسيان هذه التجربة ، والبعض منهم تصلنا اخباره متواترة مثل : (مصطفي) الذي ساعدنا في التحدث مع سفينة الإنقاذ وآخر لحظات قضيناها معه كان في (فالتميليا) ، وكان معه صديقه (مجتبي) فقد وجدا أحد السماسرة ساقهما الي سائق شاحنة ومعهم بعض المهاجرين اتفقوا معه

لتوصيلهم لمدينة (مارسليا) بفرنسا مقابل (مئتا يورو) فقبلوا جميعا مرغمين ، وإصطحبهم ليلا بشاحنته بعد أن وضعهم في الصندوق الخلفي وسار بهم خمسة ساعات وأنزلهم في منطقة نائية ، واشار اليهم لاضواء مدينة مسافة نصف ساعة أنها (مارسليا) ، فمنحوه المبلغ المتفق عليه ، وعندما دخلوا المدينة إكتشفوا أنها مدينة (تورنتو) لقد أعادهم خطوات للخلف ، فعادوا يشعرون بالغبن والألم ، وهذا علي لسان الراوي ويبقي امثال (مصطفى) و(مجتبى) مثال للنبل والطيبة فقد تقوقعوا داخل أوروبا ولنا معهم موعد ، فدائما ما يظهر الشعاع حتي ولو كانت هنالك أنوار ، فالشعاع القوي يكون ساطعا علي طول الدوام .

أما (محمد الفاتح ) فقد ذهب مع صديقه (بكري) لمدينة (كالي) ليعبرا لبريطانيا وكان (بكري) محظوظا في العبور بسبب صغر سنه ، ولم يوفق (محمدالفاتح) وأصبح موهوما« بعدم العبور ، فغير جميع أرقامه بأرقام دولة انجلترا ، ويتصل علينا بعد كل حين ، ويطلب منا أن نبارك له فقد عبر لبريطانيا ، فنبارك له ونحن نعلم أنه في فرنسا جوارنا !!.

(عبدالرحمن) هذا الفتي الأسمر تعرض لصدمات قوية جراء الرحلة القاسية ، وازداد به المرض بعد وصوله ايطاليا ، وانغمس في

اشياء كثيرة ، فتقدم بطلب للعودة للوطن حاولنا ان نثنيه من قراره ولكننا فشلنا ، فعاد للسودان ، وحاليا يتصل بنا يوميا ليعود عن طريق إيطاليا .

وهنالك أكثر من ستة مهاجرين اصيبوا بامراض نفسية، أما الأثيوبية التي حاولت الانتحار فقد قابلتها في الفندق الذي أسكن فيه تدعي (مدينة) وهي حبلى وربما تضع مولودها في الأيام القادمات .

وهنالك بعض الأخوة تحركوا نحو (المانيا) فيهم من نجح وفيهم من عاد لفرنسا وطالب بعودة طوعية للسودان .

لقد تبخرت الآمال ، واصبحت الحقائق مرمي العين ، ولا يوجد لدينا الا طريقا«واحدا» وهو الإقدام .

ولاتزال الأحلام معقودة طالما ان هنالك تزييف للحقائق بوجود مستقبل علي سفوح أوروبا ، وسيكون البحر فاغرا« فاه ليبتلع كل من يعتمد علي تجار البشر الذين يبحثون عن المكاسب علي جثث الإنسانية ، ولا تحكمهم ضوابط ولا يلتزمون بأعراف وتقاليد، وطالما أن أفريقيا يسودها الفساد ، وتحكمها الديكتاتوريات .

و سيكون علي البحر أن يرقص فرحا» بإبتلاعه المنكوبين .

اما المرأة التي فقدت طفلتها فقد عبرت بحر الدموع ، وشاء لها

الله ان تلتقي بطفلتها بعد أن استلمتها منظمة ألمانية ترعاها ، وكان منظر اللقاء لا يمكن وصفه ، ولكن نهاية الأمر تبقى النهايات هي العبر .

عاد (محمد عزالدين) الذي نجا من سفينة العريش ومعه (٢٦) سودانيا لأرض الوطن وآمنوا بأن أوروبا هي مجرد حلم تبخر ، عندما شاهدوا جثث اخوانهم وهي طافية علي مياه البحر الأبيض ، ففضلوا الاستكانة واراحة النفس .

هنالك اسماء كثيرة تبعثرت من الذاكرة ، ولكن يبقي الأنسان هو المضمون ، فلا تزال في النفس بقايا من الأمنيات ، ولا يزال هنالك مهاجرين من جنسيات اخري تلاقي نفس المصير ، ولكن بطرق ومسارات أخري .

فذهابي لتجمعات المهاجرين ، يجعلني كل ليلة أعود بقصص أغرب من الخيال ، ويكفيني أني شاهدت اليوم تلك الطفلة الصغيرة التي كانت برفقة والدها بعدما فقدت والدتها وهم يحاولون الصعود من المركب لسفينة فانقلبت المركب بعد أن صعدت الطفلة يحملها أباها ، وزوجته لا تزال في المركب ، ومعها أكثر من خمسة عشر مهاجرا ،فمات عشرة وكانت والدتها من جملة المتوفين ونجت الطفلة والأب ، وحضروا لفرنسا يحملون الآسى والمواجع

ويتجولون من مقهى الي مقهى دون دليل .

ولا يزال جحيم صحراء(ليبيا) ، وجحيم شواطيء (تركيا) يبتلع كل لحظة الآلاف من الشباب ، ولا تزال أفريقيا غارقة في الظلام ، بعدما فقدت من ينيرون لها شموع الحرية والعدل والمساواة ، ويثبتون قوائم للديمقراطية تحافظ علي النسل من الضياع إعمارا» للأرض ...